جدليّة اللغوي والاجتماعي
في خطاب التعازي في التراث العربي

الدكتورة خلود إبراهيم العموش*

الملخّص

يسعى هذا البحث إلى الوقوف على الأنساق الثقافيّة والاجتماعيّة التي صدرت عنها الأنساق اللّغوية في خطاب التعازي في التراث العربي في ضوء منجزات اللّسانيّات الاجتماعيّة؛ فهو يبحث في الكيفيّات التي تفاعل بها خطاب التعازي مع المجتمع، وينظر في التغيّرات التي أصابت بنية اللغة في خطاب التعازي استجابة لوظائفها الاجتماعيّة في مسألة الموت.

ومن أبرز الظواهر اللّغويّة / الاجتماعيّة التي درسها البحث: التشدّد في الدعوة إلى الصبر والتنفير من الجزع في رسالة التعازي، وتجلّى ذلك في الأدوات اللّسانية الحازمة، ووقف البحث على أسبابها الاجتماعيّة والتداوليّة. وقيمة الشهادة في المجتمع المسلم وتجلّياتها اللّغويّة. وأعراف المجتمع العربي والمسلم ومعتقداته وقت المصيبة. وفقد الأبناء الذكور وألمه الخاص في المجتمع العربي. وتقولب رسالة التعازي بحسب قناة الاتصال وأطراف الخطاب، وسياق الحال. والمرأة في رسالة التعازي: معزِّية، ومعزّاة، ومعزّىً بها.

الكلمات المفتاحيّة: الخطاب، التعازي، علم اللّغة الاجتماعي.

* قسم اللغة العربية- كلية الآداب- الجامعة الهاشميّة.

مقدّمة:

اتصلت التعازي في الموروث العربي بفن الرثاء وارتبطت به، وكانت شعراً ونثراً، وغلب عليها النثر. ولم يلتفت إليها أحدٌ - فيما أعلم – وقد توافرت مادةٌ معقولة في "التعزية"، وهي مادة جديرة بالدرس. وقد وصلنا منها كتابان: الأول للمدائني (228هـ)[1]، والثاني للمبرّد (286هـ)[2]. كما توجد في التعازي فصولٌ متفرقة في بعض كتب الأدب العامّة[3].

(1) المدائني، أبو الحسن علي بن محمد (ت 228هـ)، كتاب التعازي، تحقيق ابتسام الصفَار وبدري محمَد فهد،ط1،مطبعة النعمان النجف الأشرف،1971.

(2) المبرّد، أبو العبّاس محمد بن يزيد (ت 286هـ)، التعازي والمراثي، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.

(3) توجد في التعازي فصول متفرقة عند: ابن قتيبة (ت276هـ)، وابن عبد ربّه (328هـ)، والصاحب بن عبّاد (ت 385هـ)، والصابي(ت 448هـ)، وابن حمدون (ت608هـ)، والنويري (ت733هـ)، انظر:

- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، عيون الأخبار، تحقيق محمد الإسكندراني، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994، المجلّد الثالث، ص(56- 73).
- ابن عبد ربَه، أحمد بن محمد (ت 328هـ)، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، المجلّد الثالث، ص(183- 264).
- الصاحب بن عبّاد (ت385هـ)، رسائل الصاحب بن عبّاد، صحّحها وقدّم لها عبد الوهاب عزّام وشوقي ضيف، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت. الباب العاشر، ص(136- 151).
- الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت 448هـ)، غرر البلاغة، حققه وقدّم له محمد الديباجي، ط2، دار صادر، بيروت، 2002، الباب التاسع، ص(186- 207).
- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت 608هـ)، التذكرة الحمدونيّة، تحقيق إحسان عبّاس وبكر عبّاس، ط1، دار صادر، بيروت، 1996، المجلّد الرابع، الباب التاسع عشر، ص(193- 327).
- النويري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط2، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2007، المجلّد الخامس، الباب الثاني، ص (161- 226).

وتمتد المدة التي تغطيها هذه المادّة من العصر الجاهلي وحتى القرن السادس الهجري، غير أن أكثر النصوص تنتمي إلى القرون الأربعة الهجرية الأولى. وستكون هذه المادّة، وهذه المدة التاريخية هي ميدان الدرس لهذا البحث.

يتّصل خطاب التعازي بما يقال لأهل المصيبة، أو ما يتمثّل به من قول حسن أو آيات بيّنات، أو ضرب الأمثلة للتأسّي والاصطبار. ويرمي إلى تهدئة الخواطر وتذكير أهل المصاب بالأجر على حُسن اصطبارهم[1].

وموضوعات "التعازي" مستمدّة من الغرض الرئيس منها، وهو العزاء والتسلية. ومن أبرز هذه الموضوعات التي استقرتها الباحثة في المظان المختلفة: الدعوة إلى الصبر، والاحتساب، والتأسّي، وذكر فضائل المتوفّى، والدعاء للمصاب بالأجر العظيم وحسن الصبر، وللمتوفّى بالرحمة، والحديث عن قضاء الله وقدره، وسنّة الله الماضية على الخلائق جميعاً في الحياة والموت، وتهوين المصيبة، والتذكير بالله الباقي.

ويحاول هذا البحث الوقوف على الأنساق الثقافيّة والاجتماعيّة التي صدرت عنها الأنساق اللّغويّة في خطاب التعازي في ضوء منجزات اللّسانيّات الاجتماعيّة، وسيحاول الوقوف على الظواهر الاجتماعيّة التي تنبىء عنها البنى اللّغوية؛ فالمنظور الاجتماعي يتّصف وفقاً لـِ (أشار) "بتمثيل الممارسات الاجتماعيّة وترميزها[2]"؛ ووظيفة علم اللّغة الاجتماعي بشكل رئيس: "البحث في الكيفيّات التي تتفاعل بها اللّغة مع المجتمع؛ إنّه ينظر في التغيّرات التي تصيب بنية اللّغة استجابة لوظائفها الاجتماعيّة المختلفة"[3]. ومن أهمّ تطبيقات هذه الفكرة أنّ التركيب الاجتماعي يؤثّر في

(1) انظر: النويري، شهاب الدين أحمد عبدالوهاب(ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ط2، 2007،ج5/ ص162.

(2) أشار، بيار، سوسيولوجيا اللّغة، ترجمة عبد الواحد ترّو، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1996، ص13.

(3) نهر، هادي، اللّسانيات الاجتماعيّة عند العرب، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، ط1، 1998، ص18.

شكل التركيب اللّغوي. وأنّ هناك طرائقَ خاصّة للتكلّم واختيار الموضوعات والكلمات والتراكيب تحدّدها متطلّبات اجتماعيّة معيّنة[1].

ولا ريب أنّ هذا الضرب من الدراسة اللّغويّة يعود إلى تطوّر اللِّسانيات: منهجاً وميداناً، وذلك حين انتقلت "من دراسة الجملة كمنجز بالإمكان، إلى دراسة العبارة كمنجز بالفعل. وحين انتقلت من دائرة التركيب في النحو إلى دائرة التركيب في بناء النص. وحين اتّسعت ميادينها فغطّت ما كان يعدُّ من خصوصيّات غيرها، ولامست العلوم الاجتماعيّة والفلسفيّة وعلم النفس والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا"[2]. وإنّ هذا الضرب من الدراسات –وفقاً لفرانسواز آرمينغو- ينظر إلى اللّغة بوصفها "ظاهرة استدلاليّة وإيصاليّة واجتماعيّة في الوقت نفسه"[3]؛ فاللّغة أداة نقل الأفكار بين المتكلّمين تحقيقاً للشرط الاجتماعي الإنساني، وهو ما يسمّى عند علماء اللّغة الإيصال. "وهذه العملية تربط بين طرفين: بين اللّغة نظاماً والإيصال هدفاً للمتكلّمين، ويكون ذلك ضمن علاقة تمثّل اللّغة فيها أداة الإيصال، ويمثّل الإيصال فيها وظيفة اللّغة"[4].

إنّ تحليل الاستعمال اللّغوي في هيئته النصيّة لا الجمليّة هو الهدف المشترك بين النّص والخطاب والاتّصال، ولعلّ هذا من أهمّ الإنجازات المنهجيّة للنظريّة اللّسانيّة خلال العقود الثلاثة الماضية[5]. وإنّ انتقالنا إلى دراسة النصوص ينبغي أن يكون "انتقالاً من الثبات إلى الحركة، ومن كمّ المادة المحلّلة إلى توسيع في كيفيّة التحليل؛ كالنظر إلى العلاقات بين المنطوقات، والتفاعلات بين المشاركين في الاتّصال، ومقاصدهم"[6].

(1) بشر، كمال، دراسات في علم اللّغة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1973، ص58.
(2) عيّاشي، منذر، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002، ص9.
(3) نفسه، ص141.
(4) نفسه، ص55.
(5) العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط1، 2005، ص7.
(6) نفسه.

إنّ اللغة – وفقاً لــِ ديتمار– "لا يمكن اختزال مجالها في الوصف الشكلي الثابت، ولا يمكن أن تُفهم إلاّ في سياق السلوك الاجتماعي"[1]. وقد وضع هايمز برنامجاً نظريّاً لتحليل الواقعات الاتصاليّة في محيطها الثقافي تحليلاً وظيفيّاً مرتبطاً بالسياق، وديناميّاً مرتبطاً بالعمليّة الاتصاليّة. وهذا البرنامج يعتمد على مجموعة من المكوّنات الاتصاليّة من أبرزها: المشاركون في الاتّصال، والموقف الاتصالي، وصيغة الاتّصال، والحدث اللّغوي، والموضوع، ووظيفة التفاعل. وتصلح هذه المكوّنات لأن تكون إطاراً وصفيّاً للبحوث في الكفاية الاتّصاليّة للمتكلّمين في إطار علم اللّغة الاجتماعي[2].

إنّ القراءة المتأنيّة للغة الخطاب في التعازي تفتح الباب واسعاً لقراءة الأنساق الاجتماعيّة والثقافيّة التي تصدر عنها؛ فالتواصل الاجتماعي إنّما يبنى في العادة على الرؤى الفكريّة للجماعات الإنسانيّة، وتكون اللّغة هي الوسيط بين أفق الجماعة الداخلي (فكرها وفلسفتها) وأفقها الاجتماعي الواسع. ويطلق عبد الله إبراهيم على هذه العمليّة اسم التلقّي الداخلي[3]. وقد انتهى (فان ديك) إلى أنّ دراسة النص الأدبي، بوصفه ظاهرة ثقافيّة، لابدّ أن تمرّ بدراسة عدد من السياقات من أبرزها: السياق المعرفي، والسياق الاجتماعي-النفسي، وصولاً إلى السياق الاجتماعي-الثقافي. وكلّ هذا يبدأ بدراسة النّص فعلاً لغويّاً، ثمّ بعملية فهمه وتأثيره، وأخيراً تفاعلاته مع المؤسّسة الاجتماعيّة. ويعزو (ديك) اختلاف الظواهر الثقافيّة، وشيوع أنواع من النصوص، بما في ذلك البنيات النسقيّة والأسلوبيّة والبلاغيّة من ثقافة إلى أخرى، إلى طبيعة ذلك التفاعل ونوعه وشروطه وعصره[4].

(1) Ditmear, Norbert, Sociolinguistics: A critical Survey of theories and application, Frankfurt, 1976. p. 161.

(2) انظر العبد، النص والخطاب والاتصال، ص52.

(3) إبراهيم، عبدالله، التلقّي والسياقات الثقافيّة، مؤسّسة اليمامة الصحفية، الرياض، ط1، 2001، ص9.

(4) فان دايك، النص: بنياته ووظائفه مدخل أوّلي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص78.

وسيعتمد هذا البحث على رسائل التعزية في: "كتاب التعازي" للمدائني (ت228هـ)، وكتاب "التعازي والمراثي للمبرّد(ت 286هـ). وأبواب التعازي المبثوثة في كتب الأدب العامّة. وستمثّل جدليّة اللّغوي والاجتماعي، ودور كل منهما في تشكيل الآخر سؤال البحث وهدفه الرئيس.

وقد اختيرت النصوص بحيث تشمل الظواهر والأنساق الثقافيّة والاجتماعيّة التي وجدت الباحثة أنّها ذات حضور واضح في خطاب التعازي، بعد دراسةٍ وافية لمادّة التعازي في الموروث العربي في المصادر التي أشير إليها. وحرصت الباحثة على أن تشمل هذه النماذج العُصُر التاريخية التي تشملها مادة الدراسة.

"الصبر" في رسالة التعازي بين اللّساني والاجتماعي

إنّ من أبرز الظواهر التي تكشفها دراسة لغة الخطاب في التعازي في التراث العربي الإصرار الكبير من المعزّين على خيار الصبر، وعدّه قيمة عليا، والتنفير من الجزع والضعف أمام البلاء، وعدّ الصبر من مكارم الأخلاق، ومن سداد الرأي، وعكس ذلك يقال في الجزع، وذلك في الجاهليّة والإسلام على حدّ سواء.

والحديث عن الصبر أمر متوقّع في هذا النوع من الخطاب نظراً إلى ما تحدثه المصيبة في نفس المرء من ألم؛ فكلّ منّا محتاج إلى مثل هذه القيمة في حالة الفقد. ولعلّ الحديث عن الصبر يظهر الوجه المزدوج لفكرة الموت؛ فهو "حادث كلّي كليّة مطلقة من ناحية، جزئي جزئيّة مطلقة من ناحية أخرى؛ فالكلّ فانون، ولكنْ كلّ منّا يموت وحده"[1]. وبذا يحتاج من يبقى إلى من يتعاطف معه، ويقول له ما يعينه على التحمّل والاستمرار. وفي الوقت الذي نتوقّع فيه أن تكون لغة رسالة التعازي رقيقة حانية لطيفة، فإنّ ما يلفتنا في التشكيلات اللّغويّة المعبّرة عن الصبر أنّها تتّخذ سمتاً شديداً حازماً. ويدلّ على هذا السمت الشديد القوالب اللّغويّة التي توسّلوها للتعبير عن الصبر؛ فاستخدام التوكيد وتقنيات الاختصاص والقصر، وأسلوب الأمر والنهي،

(1) بدوي، عبدالرحمن ، الموت والعبقريّة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ط1، 1945 ، ص4.

وأسلوب المقابلة بين الصبر والجزع، وأسلوب الشرط وما يشتمل عليه من حِدّة في الاختيار، وتوجيهٍ لذلك الاختيار، وأسلوب الاستفهام الذي يخرج إلى التقرير أو النفي غالباً، وأسلوب التفضيل مع كون الصبر دائماً هو المفضّل. والخطاب العقلي المجرّد البعيد عن العاطفة الذي يؤكّد حالة الوعي عند الفاقد مقابلاً لحالة الانكفاء والحزن. هذه خصائص كلّها للغة الخطاب في التعازي في التراث العربي القديم.

وليس من هدف البحث استقراء هذه الخصائص هنا، وإنّما الهدف تفسير وجه الشدّة والحزم فيها، وتفسير الابتعاد عن الرّقة واللطف في الخطاب الذي تعكسه هذه الخصائص، وسنضرب هنا بعض الأمثلة، والملحوظ فيها أنّ المرسل يحاول أن يَحْمِل المخاطبَ حملاً على الصبر، ويحاول أن ينتزعه انتزاعاً من حالة الجزع. وقد يعمد إلى الترغيب والترهيب عبر أسلوب المقابلة؛ ومنه قول أحدهم معزّياً: "إنَّ لكَ في العزاءِ من رزيئَتِك عاجلَ الربحِ وآجلَ الثوابِ، وفي الجزعِ بَخْسُ الثوابِ وتخوُّف العقابِ"[1].

وقوام هذه التعزية جملتان اسميّتان متعاطفتان ومؤكّدتان بـــ"إنّ" التي لها بُعْدٌ انتشاري يتأثّر به كلّ ما وليها في السياق. وفي خيار الصبر يستخدم المرسل أسلوب الخطاب الفردي وليس الخطاب العام، وذلك من خلال كاف الخطاب في: "لك" و "رزيئتك". وقدّم التعليق (لك) على متعلّقه؛ لإشعار المتلقّي بأنّه معنيٌّ بشكل مباشر بهذا الخيار وهذه المفاضلة؛ فأصل الجملة:"إنّ عاجل الربح وآجل الثواب لك في العزاء من رزيئتك". واستخدام المطابقة بين:(عاجل وآجل)، و (الثواب والعقاب) في حديثه عن عواقب الصبر لتركيز إحساس المتلقّي بأهميّة هذا الصبر وفائدته، وأنّه يغطّي مساحتي الحاضر والمستقبل؛ فالعاجل هو ما تجنيه من فائدة في الدنيا من التسلّي عن المصيبة، وتوازن النفس وتماسكها، وحسن اليقين بقدر الله. وأمّا الآجل فالثواب المنتظر يوم

(1) المدائني، أبو الحسن علي بن محمد (ت 228هـــ)، كتاب التعازي، تحقيق ابتسام الصفّار وبدري محمّد فهد، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط1، 1971، ص66.

القيامة. واستخدم "الربح" للعاجل لأنّه محسوس سريع، واستخدم "الثواب" للآجل لأنّه يتّصل بالمثوبة إلى الله في الدار الآخرة؛ وفي هذا تعظيم لدائرة الآثار الإيجابيّة للصبر لتشمل الدارين. وفي هذا تحفيز أكبر للمتلقّي أن يختار الصبر. وفي المقابل فإنّ بخس الثواب وتخوّف العقاب ينتظره إذا ما اختار الجزع، وكلاهما في الآخرة أمّا في الدنيا فإنّ الجزع ليس له أيّة فائدة تخفيفيّة على الفاقد. وقد كان لأسلوب المقابلة دوره الواضح في إظهار ميزات الصبر .

ومنه كذلك ما عزّى به رجل رجلاً قال: "التمسْ ما وَعَد اللهُ من ثوابِه بالتسليمِ لقضائِه والانتهاءِ إلى أمرِه؛ فإنَّ ما فاتَ غيرُ مُستَدْرَكٍ. وَعَوَضُ اللهِ لكَ بالصبرِ على مصيبتِك خيرٌ لكَ من الجزعِ على رزيئَتِكَ"[1]. وهنا يتضافر فعل الأمر (التمس)، والتوكيد في: "فإنّ"، والتفضيل في "خير لك"، والمقابلة، في جعل المتلقّي يعدل عن الجزع إلى الصبر. والخطاب مباشر ليدلّ على فرديّة الاختيار والقرار، ومن ثمّ الثواب والعقاب. وعبّر عن هذه المباشرة بضمائر الخطاب في: "التمس/أنت، وكاف الخطاب في: لك، ومصيبتك، وزريئتك. والرسالة قويّة حازمة، فيها ترغيب عن طريق خطاب العقل وتوجيهه نحو الاختيار. بل إنّ قوله:"فإنّ ما فات غير مستدرك" يبدو فيه نوع من القسوة، وإن حاول المرسل تخفيفها بالحديث عن عوض الله بالصبر.

ومن أسلوب الشرط قول معزّ آخر:"ومَنْ أَعْظَمَ الجَزَعَ على مصيبتِه بفقدِ المحبوبِ فَقد استَدْعَى أُخرى بفوتِ الآخرةِ"[2]. وهي رسالة تحذيريّة للمتلقّي المصاب أن لا يستسلم للجزع. وفي الجزء الأوّل من التركيب الشّرطيّ مصيبة بفقد المحبوب وجزع عظيم، وفي الجزء الثاني منه مصيبة أخرى هي فوت الأجر في الآخرة. والثانية تستدعيها الأولى؛ فيصبحان مصيبة فوق مصيبة؛ بل إنّ الثانية لا تقارن بالأولى؛ ولذا فقد وصفها بـــ"أخرى". وهذا التنكير يحيلك إلى المجهول؛ فهي مصيبة

(1) نفسه، ص66.

(2) نفسه، ص86.

غائبة، ملامحها غير منظورة، لكنّ مجرد ذكرها على هذا النحو فيه تنفير شديد منها. ممّا يدفعك للحذر منها عن طريق إلغاء السبيل الذي يستدعيها وهو الجزع. وهي رسالة حازمة أخرى لا تترك للمتلقّي فسحة للمناقشة، بل تصرفه إلى الاختيار والمفاضلة، والكفّة راجحة للصبر طبعاً.

ويعدّون من لم يوطِّن نفسه على الصبر عاجزاً، وفي ذلك يقول أحدهم معزّياً ربيع بن أبي راشد بفقد أخيه:"إنْ لمْ تَكُنْ وَطَّنْتَ نَفْسَكَ على فِراقِ الأَحبّةِ فإنَّك عاجزٌ"[1]. فأيّ خطاب هذا الذي يقدّم لرجل مصاب بفقد أخيه؟! فالشرط يطالعك أولاً، ثمّ التوكيد في: "فإنّك"، ثم اللّفظة "عاجز" نفسها، وما تشتمل عليه من توبيخ وتقبيح، وكلّها تبتعد بالخطاب عن اللهجة الحانية، وتميل به إلى الشدّة؛ فالقدرة هنا لها معنى آخر هو توطين النفس على فراق الأحبة، وخلافها العجز. وهذه الشدّة وهذا الحزم في الرسالة هدفه انتزاع المتلقّي من حالة الضعف والاستكانة. و"لم تكن" الواردة في النص معناها أنّ توطين النفس على الألم أمر سابق على المصيبة، ولا بدّ من تهيئة النفس لاحتمال المصيبة قبل وقوعها.

والمفردات والتراكيب التي يستخدمونها تعزّز منحى الشدّة في الخطاب؛ فيستخدم معزّ مفردات مثل: "القمع والقرع والسلوّ"[2] لمواجهة الجزع عند المصيبة. ويستخدم آخر وصفاً مثل "سلوّ البهائم" في مقابل سلوّ الإيمان والاحتساب يقول:"إنّهُ مَنْ لَمْ يسْلُ أَهْلَهُ إيماناً واحتساباً سَلا كما تَسْلو البهائمُ"[3].

---

(1) نفسه، ص73.

(2)جاء ذلك في عزاء رجل من بكر بن وائل. رجلاً عن أبيه كتب إليه: "يا بنيّ، إنّ احتمال المضاضة في أوّل الصبر حين ينقطع الحزن أيسر نكاية من آخر الجزع، وإنّ أمراً لا يعقب مصدره إلاّ بالندم، ولا تخلص منه إلاّ إلى الإثم لحقيق ألاّ تستقبل مورده إلاّ بالقمع والقرع والسلوّ". انظر: المدائني، ص87.

(3) المبرّد، أبو العبّاس محمد بن يزيد (ت 286هـ)، التعازي والمراثي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1996، ص118.

وقد يلجأ المرسل إلى الخشونة في الخطاب، بل القسوة أحياناً إذا رأى شدّة جزع المصاب. ومنه "أنّ سليمان بن عبد الملك جزع كثيراً على ابنه أيوب فقال له رجل من القرّاء:"يا أميرَ المؤمنَين، إنَّ رجلاً حَدَّث نَفْسَه بالبقاءِ في الدنيا، وظنَّ أنَّهُ يَعْرَى من المصائبِ فيها لَغَيْرُ جيّدِ الرأيِ"[1]. والمرسل هنا قد تجاوز حدود التذكير إلى التوبيخ؛ فوصف من يتغاضى عن فكرة عموم الموت لبني البشر، والمخاطب واحد منهم، بأنّه غير جيّد الرأي. مع أنّ المخاطب هو الخليفة، واعتبارات مراعاة المقام كانت تقتضي لباقة أكبر في الخطاب، إلاّ أنّ علوّ هذه القيمة (الصبر) في المجتمع هي التي مكنّته من تخطّي حدود اللياقة واللباقة في الخطاب. وتجلّت شدّة التوبيخ، لغويّاً، في أدوات التوكيد: إنّ ولام الابتداء، والنفي بـــ"غير"، والتعميم الماثل في تنكير "رجلاً"، وفي تعميم القول عبر البعد عن المباشرة؛ فكأنّ الحديث موّجه لأي رجل، مع أنّ الخطاب موجّه إلى الخليفة، دلّ عليه النداء في أوّل رسالة التعزية "يا أمير المؤمنين".

وفي تعزية أبي تمّام لمالك بن طوق بوفاة أخيه، يصف أبو تمام الجزع بأنّه انحناء واعوجاج في قناة المكارم؛ فالإفراط في الجزع مثلمة للمكارم. وهذا جزء من منظومة العرف والاعتقاد في الجانب الاجتماعي والثقافي عند العرب يقول[2]:

أمالـــكُ إفـــراطُ الـــصبابةِ تـــارِكٌ حناً واعْوِجاجـــاً فـــي قنـــاةِ المكـــارمِ

أمّا تفسير هذه الظاهرة الخطابيّة فيمكن أن نردّه إلى سببين: **الأول**: تداولي، يتّصل باستراتيجيّة خطابيّة يتّبعها المرسل في ردّ المتلقّي المفجوع إلى جادّة الوعي بعد أن عصفت به المصيبة وأذهله الحزن؛ فيكون الخطاب الحازم والشديد أداة المرسل في هذا الهدف، لئلاّ يستسلم الفاقد لحالة الحزن والألم التي تلمّ به.

(1) نفسه، ص36.

(2) النويري، نهاية الأرب، ص211.

إنّ التعزّية فعل إنجازي، وفقاً لتصنيف أوستن للمنطوقات اللّغويّة[1]، وله غرضٌ إنجازيّ محدّد هو رفع معنويّات الفاقد وتهدئة خاطره، وقد شغل التداوليّون، وعلى رأسهم سيرل، بالبحث في الطرائق التي يتّبعها المرسِلون في تقوية القوّة الإنجازيّة للمنطوق[2]. وهذه القوّة جزء من البنيّة الدلاليّة للمنطوق، وتتّصل بتحقيق مقصد المتكلم تحقيقاً ناجحاً في سياقٍ بعينه من سياقات استعمال المنطوق[3]. وفي حالتنا فإنّ الأدوات اللّغويّة من توكيدٍ وشرطٍ و... هي أدواتُ تقوية القوة الإنجازية لرسالة التعازي.

إنّ المرسل –وفقاً لجاكبسون- يقوم بتركيب الرسالة وتنظيم عناصرها بحيث تؤدّي وظيفة انفعاليّة أو تعبيريّة معيّنة؛ ويقصد بالوظيفة الانفعاليّة تعبير المرسل عن المواقف التي يتّخذها تجاه ما يعبّر عنه؛ ويكون ذلك باستخدام أدوات لسانيّة تدلّ على: الانفعال، أو الغضب، أو السخرية أو التعاطف ...[4]. وفي حالتنا فإنّ المرسل قد استخدم: التوكيد، والتوبيخ، والتفضيل، والاستفهام، والشرط لإعلاء قيمة الصبر والتنفير من الجزع، وإبعاد المتلقّي عنه، ولإعادته إلى حالة من التوازن الداخلي. ومن غير هذه الأدوات اللّسانيّة لم يكن للقارئ أن يقرأ رسالة إعلاء قيمة الصبر والتنفير من قيمة الجزع. وفي هذا يقول (ريفاتير):"إن القارئ/المتلقّي لا يستطيع أن يقرأ من غير أن تقوده الطريقة المتّبعة في الأسلوب إلى الأمر الجوهري[5].

والثاني: اجتماعي، مردّه منظومة العرف والاعتقاد لدى الجماعة اللّغويّة التي تستخدم هذا الخطاب؛ فالعرب يعدّون الجزع مثلمة للمكارم، ومن مظاهر الضعف والاستكانة التي لا تليق بالرجال، ويعدّون الصبر من مكارم الأخلاق، ومن القيم العليا

(1)Austin, John: How to do things with words, Oxford Uni. Press, 1962, pp. 101.
(2) Ibid, p. 260.
(3) Ibid, p. 261.
(4) عيّاشي، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، ص145.
(5) نفسه، ص152.

في المجتمع. وقد وصف المبرّد هذا في نص واضح نقله عن المدائني(*) قال: "كانت العرب في الجاهلية- وهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً- يتحاضّون على الصبر، ويعرفون فضله، ويعيّرون بالجزع أهله إيثاراً للحزم، وتزيّناً بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حسن العزاء، حتّى أنْ كان الرجل منهم ليَفْقِد حميمه فلا يُعْرَفُ ذلك منه. يصدّق ذلك ما جاء في أشعارهم وأخبارهم. قال دريد بن الصمّة في مرثيّته أخاه عبد الله:

قليلُ التشكّي للمصيباتِ حافظٌ مع اليومِ أدبارَ الأحاديثِ في غدِ
صَبا ما صبَا حتّى إذا شابَ رأسُهُ وأحدثَ حِلْماً قالَ للباطلِ ابْعِدِ"(1)

وهذا الذي أورده المبرّد نقلاً عن المدائني له بقيّة تقولها الباحثة: فإذا كان هذا حال العرب قبل الإسلام، وهم كما وصفهم "لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً" يتحاضّون على الصبر، فما بالك بالمسلمين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب، ويتلون في كتاب ربّهم آيات الحضّ على الصبر، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ**﴾(2)، وغيرها من الآيات. وأمامهم هدي نبيّهم في الصبر والاحتساب. كلّ ذلك يشكّل نسقاً عقديّاً وفكريّاً وثقافيّاً يجعلهم يتمسّكون بقيمة الصبر ويحرصون عليها. ومع أنّ الجاهليّين والإسلاميّن اتّفقوا على أنّ الصبر قيمة عليا، إلاّ أن دوافع الجانبين كانت مختلفة؛ فعند الجاهليين كانت: إيثار الحزم، والتزيّن بالحلم، وطلب المروءة، والفرار من الاستكانة، وقد يضاف إليها التجلّد دفعاً للشماتة كما قال شاعرهم(3):

(*) لم أجد إلا جزءاً قصيراً من هذا القول في كتاب التعازي للمدائني، وقد يكون مما سقط من النسّاخ وحفظه المبّرد. انظر: المدائني، كتاب التعازي،ص75.

(1) المبّرد، التعازي والمراثي، ص7.

(2) سورة الحج، الآيتان (34- 35).

(3) المبّرد، التعازي والمراثي، ص9.

وتَجلُّـــدي للـــشامِتينَ أُرِيهُـــمُ أَنّـــي لِرَيْـــبِ الـــدهرِ لا أَتَضَعْـــضَعُ

أمّا في الإسلام فالدافع هو: الإيمان، والاحتساب، والاستجابة لأمر الله ورسوله بالصبر، وانتظاراً لما وعده الله إياهم من أجر وثواب.

إن المعتقدات الدينيّة والأفكار تؤدّي دورها البالغ في صياغة الرسائل اللّغويّة التي تصدر عن المتخاطبين في مواقف الاتصال المختلفة، ويركّز "هولمز" على هذا المنحى لأنَّ هذه العقائد من أهم المتغيّرات الاجتماعيّة المؤثّرة في التغيرات اللّغويّة[1].

الشهادة في رسالة التعازي: اللّساني والاجتماعي

ومن الظواهر كذلك قيمة الشهادة في المجتمع المسلم. تشكّلت هذه القيمة بسبب ما وصف الله به الشهداء، وما أعدّه لهم ولأهليهم من ثواب، وبسبب قيمة البذل في سبيل الله على أرض المعركة.

وأهل الشهداء –عادة- يشعرون بالفخر وليس بالحزن، ولذلك يهنّأ أهل الشهداء ولا يعزّون، وما زالت هذه القيمة في أمّة الإسلام حتّى يومنا هذا. ومع علوّ قيمة الدفاع عن الأرض والوطن وردّ الأعداء عند الأمم جميعاً، إلاّ أنّ الشهادة في المجتمع المسلم تشغل حيّزاً متميّزاً مختلفاً، بسبب ما أوردناه من ارتباطها بالله ورضاه وثوابه؛ فهي تشكّل نسقاً ثقافيّاً لا يمكن تفسير رسالة التعازي المتعلّقة به إلاّ من خلاله.

وممّا يتّصل بهذا ما أورده المدائني قال:"أُصيبَ عَمْرو بنِ كعبِ النهدي بتُسْتُر مع مَجْزَأَةَ بنِ ثوْرٍ، فكتموا أباه، ثمّ علمَ فلم يَجْزَعْ، وقالَ: الحمدُ للهِ الذي جعلَ من صُلْبي مَن أُصيبَ شَهيداً. ثمّ استشهدَ ابنٌ لهُ آخر، يقال له "حَمَلَ" مع سعيدِ بنِ العاصِ بِجُرْجانَ، فَبَلَغَهُ، فقال: "الحمدُ للهِ الذي تَوفّى منا شهداءَ، وقال:

جَزى حَمَلاً جــازي العبــادِ كرامــةً وعمرو بن كعبٍ خيرَ ما كــانَ جازِيَــاً

(1) Holmes, Janet, An Introduction to Sociolinguistics, Longman, 2001, p.8.

خليلـــيَّ وابنْـــيَّ اللّـــذيْنِ تتابَعـــــــا   شـــهيديْنِ كانـــا عـــصمْتي ورَجائيَـــا
ومـــن يُعْطِـــهِ اللهُ الـــشهادةَ يُعْطِـــهِ   بها شَـــرَفاً يـــومَ القيامـــةِ غاليَـــــــاً[1]

فهو يدعو الله أن يجزيه وابنيه خير ما كان جازياً؛ لأن الابنين كلّلا بالشهادة، ولأنّ الوالد احتسبهما. والرسالة فيها رقّة وعاطفة، تبدّت في قوله: "خليليّ وابنيّ"، وقوله: "كانا عصمتي ورجائيا". وتبدّت صوتيّاً من خلال ألف الإطلاق في آخر كلّ بيت، وما فيها من توّجّع وآه. لكنّ هذا الحنوّ وهذا العطف لم يمنعه من وصف الشهادة بأنّها شرف عظيم غالٍ، وأنّها انتقاء واصطفاء. وفي المقطوعة فخر واعتزاز كبيران، على الرغم من الحزن الماثل فيها، وهو اعتزاز سوّغ أن يطلب للشهيدين من الله "خير ما كان جازيا".

ويلفتك التكرار في لفظة "يعطه" وما تشي به من قيمة الشهادة وعظمتها. والتكرار هنا موزّع على طرفي الشرط؛ في فعله وجوابه؛ ففي الطرف الأول "يعطه الشهادة" وفي الطرف الثاني "يعطه الشرف الغالي". وفيما لم يقيّد عطاء الشهادة بأيّ ظرف علّق جواب الشرط "يعطه شرفاً" بظرف هو "يوم القيامة"؛ ذلك أنّ عطاء الشهادة لا يكون إلاّ في الدنيا وهو أمر معروف، أمّا الشرف فيكون في الدنيا والآخرة، لكنّ تعليقه بهذا الظرف يجعل منه شرفاً غالياً من طراز خاص.

ونقل المبرّد أنّه استشهدَ ابنٌ لأبي أمامةَ الحِمصي فكتب عمر (**t**) إلى أبي أمامةَ:"الحمدُ للهِ على آلائهِ وقضائهِ وحسن بلائه؛ فقد بلغني الذي ساقَ اللهُ إلى عبدِ اللهِ ابن أبي أمامةَ من الشهادةِ، فقد عاشَ بحمدِ اللهِ في الدنيا مأموناً، وأفضى إلى الآخرةِ شهيداً، وقد وصلَ إليكم من اللهِ خيرٌ كثيرٌ إن شاءَ اللهُ"[2]. وهي أشبه ما تكون برسالة تهنئة وليس رسالة عزاء، ولا يملك من يقرأها تفسير الخير الذي يشير إليه عمر (**t**)

---

(1) المدائني، كتاب التعازي، ص(18 -19).
(2) المبّرد، التعازي والمراثي، ص32.

إلاّ من خلال فهم قيمة الشهادة في النسق الثقافي والديني الإسلامي. وقوله:" ساق الله" تنبىء عن هذه القيمة؛ فما يساق عادة هو النعم(*)، بل أفضلها، وإسناد الفعل (ساق) إلى الله خير دليل على هذا؛ فالشهادة هي أحسن ما يمكن أن يساق إلى المؤمن. بل إنّ الشهادة تجعل النساء، وهن المعروفات بالجزع على الأبناء، يصبرن ويحتسبن على نحو ما سيمّر بنا في مفردة تالية. وتلفتك الجملة الاسميّة "الحمد لله" في فاتحة النص وفيها إطلاق الحمد وثبوته. وهو أمر خاص بالمجتمع الإسلامي الذي يرى أنّ المؤمن أمره كلّه خير. وأنّ الله يستوجب الحمد في كلّ حال.

إنّ الدلالة اللغويّة تقوم على جملة أشياء وعلاقات، لا وحدة لها سوى الوحدة التي يضيفها الموقف الإيصالي ،وهذه الدلالة محدودة ومحكومة بأطراف التخاطب في هذا الموقف الاتصالي(1)؛ وبذا فإنّ فهم أيّ رسالة لغويّة لا بدّ أن ينبثق من هذا الموقف، مع تمثّل ما يحيطه من بنى اجتماعيّة تسهم -إلى حدّ كبير- في صنع هذه الدلالة.

أعراف المجتمع ومعتقداته في رسالة التعازي: اللّغوي والاجتماعي

ومن الظواهر كذلك، ما تعكسه رسائل التعازي من أعراف المجتمع العربي والمسلم ومعتقداته في وقت المصيبة وعند الموت وفقد الأحبة. ومنها مثلاً كلمات التعزية التي تقال، وعلى وجه التعيين الدعاء بتعظيم الأجر لمن فقد حبيباً، وارتباط ذلك بالسياق الثقافي والديني للمسلمين، وما يتّصل به من التأسّي بالرسول الكريم (r) وخلفائه الراشدين، واعتقاد المسلم أنّ فقدان الأحبّة مع الصبر يعقب أجراً ورحمة في الآخرة، وأنّ الذكر وكلمات التسليم والرضى والآيات الكريمة، والأوبة إلى الله وكلمات الاحتساب هي أدوات المسلمين في مواجهة المصيبة.

(*) جاء في لسان العرب: السوق معروف: ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياقا. ومنه السياق وهو المهر. انظر: (مادة سوق)، ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم)، (ت 711 هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1990.

(1) عبد البديع، لطفي، التركيب اللّغوي للأدب، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1997، ص54.

وقد يستلّ من رسائل التعزية بعض عاداتهم في الصلاة على الميّت ودفنه، وتقبّل العزاء فيه. ومنه ما أورده المبرّد أنّه لمّا مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز "فخرجَ بسريرِه ليصلّى عليه، صفَّ عمرُ الناسَ خَلْفَهُ ثمَّ قَامَ حيالَ صدرِه ورأسِه، ثمّ قالَ: هكذا يقومُ وليُّ الرجلِ من الرجلِ، ومن المرأةِ يقومُ حيالَ وَسَطِها ... . ثمّ قامَ على قبرِه وجعلَ القبرَ بَيْنَه وبينَ القبلةِ؛ فلمّا رآهُ الناسُ قائماً قاموا، فقال: اجلسوا؛ فإنّما يجبُ القيامُ على أولياءِ الميّتِ"[1]. وهذا مثال واحد حسبُ. وترد عادات وشعائر أخرى في رسائل العزاء المختلفة.

ويلفتك شيوع ظاهرة التعازي وكثرتها في المجتمع المسلم، ومردّ ذلك ما وُعد به المعزّون أنفسهم من الأجر. ومنه ما جاء عن الرسول (**r**) قال: "من عَزَّى مُصاباً فَلَهُ مثلُ أجْرِه"[2].

ومن هذه الظواهر أنّ رسالة التعزية قد تتّخذ سمتاً جغرافيّاً فيعرف أهل منطقة ما بتعزية معيّنة، وهذا من أهم الظواهر اللّغويّة التي تعنى بها اللّسانيات الاجتماعيّة، وهي أنّك تستطيع تمييز أهل بيئة جغرافيّة معيّنة من خلال ظاهرة لغويّة تميّزهم[3]. ومن أمثلة ذلك ما أورده ابن قتيبة قال: "يُعزِّي أهلُ نجرانَ بَعْضَهم بعضاً بهذا الكلامِ: "لا يَحْزُنْكُم اللهُ ولا يَفْتِنْكُم، أَثابَكم اللهُ ثوابَ المتّقينَ، وأوْجَبَ لكم الصلاةَ والرحمةَ"[4].

وهي تعزية تقوم على الدعاء، الذي اتّسم بسمتين: الأولى، النهي الذي خرج عن مقتضاه ليدلّ على الدعاء، فيما الدعاء المعهود في التعزية يقوم على الفعل الماضي:"عظّم" أو"أعظم"، والصيغـــة:"أعظم الله أجركم" أو "عظّم الله أجركم". والسمّة

(1) المبّرد، التعازي والمراثي، ص40.

(2) أخرجه الترمذي في باب الجنائز، الجزء الثالث، ص385. انظر: الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، (ت 279 هـــ)، سنن الترمذي، دار إحياء التراث، ط1، بيروت، 1980.

(3) هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عيّاد، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1990، ص12.

(4) ابن قتيبة الدينوري، أبو محمّد عبد الله بن مسلم(ت 276هـــ)، عيون الأخبار، تحقيق محمّد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994، ج3/ص64.

الثانية، تنويع صيغ الدعاء؛ ففضلاً عن صيغة النهي استخدم الماضي المخصَّص للدعاء كما في: أثابكم، أوجب لكم. أمّا فيما يتّصل بالمضمون فلا يختلف كثيراً، وإن كان قد وسّع في مساحة هذا المضمون ليشمل الدعاء الدنيا والآخرة؛ فالبعد عن الحزن واجتناب الفتنة ميدانها الدنيا، أمّا الثواب فميدانه الآخرة.

ومن الظواهر كذلك اختلاف صيغة التعزية بحسب دين المصاب أو دين المعزِّي، وهو كذلك من الموضوعات الحيويّة في اللِّسانيّات الاجتماعيّة؛ أي أثر المعتقدات الدينيّة في الأبنية اللّغويّة؛ ومنه ما عزّى به "شبيبُ بنُ شيبةَ رجلاً يهودياً فقال: أعطاكَ اللهُ على مصيبتِكَ أفضلَ ما أعطى أحداً من أهلِ مِلَّتِك"[1]. فهو لا يجرؤ بأن يتحدّث عن الأجر الواضح أو الصلاة والرحمة لأن ذلك –في اعتقاده- للمسلم حسبُ، وإن كانت التعزيّة قد أخذت شكل الدعاء أيضاً، على ما هو متعارف في مثل هذا الموقف الاتّصالي.

ومنه كذلك ما عزّى به رجل نصراني مسلماً فقال له: "إنَّ مِثْلي لا يُعزِّي مِثْلَك. ولكن انظرْ ما زَهِدَ فيه الجاهل فارغبْ فيه"[2]. وفيه احتراس من النصراني أن يقدّم ألفاظ عزاء تشبه تلك التي يستخدمها المسلمون. وعبّر عن هذا الاحتراس بقوله:"إنّ مثلي لا يعزّي مثلك". ثمّ لم يشتمل عزاؤه إلاّ على وصيّة واحدة هي ألا يسلك سبيل الجاهلين، ويُقصد بما يسلكه الجاهلون التنكّب عن طريق الصبر. ويُلْحَظُ أنّه لا دعاء في التعزية، ولا حديث عن الأجر، ولا أمر بالابتعاد عن الجزع أو غيره، بل يغيب البعد الديني تماماً في الرسالة.

إنّ اختيار التراكيب والأنماط اللّغوية متّصل بالثقافة التي تجعل النّصوص تتركّب على صورتها التي هي عليها. ووفقاً لراندولف كويرك في كتابه "استخدام اللغة

(1) نفسه.

(2) ابن عبد ربّه، أحمد بن محمّد (ت 328هـ)، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط3، 1987، ج3/ ص259.

الإنجليزيّة" فإنّ هذه الثقافة غالباً ما تحدّد شكل اللغة التي تستخدم في التّعبير عن موضوع معيّن في المجتمع. وإنّ علينا أن ننظر إلى النّصوص على أنّ لها خصائص شكليّة داخليّة معيّنة، نتيجة لقيامها بدور معيّن في إطار نمط اجتماعيّ وثقافيّ معروف في موقف اتّصاليّ ما [(1)].

ومن الظواهر كذلك، الألم الخاص لفقد الأبناء الذكور في المجتمع العربي؛ فأكثر رسائل التعازي، فيما وَجَدْتُ، تتّصل بالتعزية في الأبناء الذكور، ثمّ يليهم الإخوة. أما الإخوة فهم السند والمعين في مواجهة نوائب الحياة، وفقدهم يوجع كثيراً، أمّا الأبناء ففقدهم أوجع المصيبة عندهم. حتّى عدّ الشاعر مَنْ لم يجرِّب فقد الأبناء بأنّه لم يعرف طعم الحزن والحرارة في الأحشاء. يقول العتبي[(2)]:

ما عالجَ الحزنَ والحرارةَ في الـ ... أحشاءِ مَنْ لَمْ يَمُتْ لَهُ وَلَدُ
فُجِعْتُ بابْنيَّ ليسَ بَيْنَهُما ... إلاّ ليالٍ ليسَ لَها عددُ
وكلُّ حزنٍ يَبْلَى على قِدَمِ الـ ... دهرِ وَحُزْني يُجِدُّه الأَبَدُ

وأكثر مراثي الآباء والأمهات في الأبناء. وأكثر ما تطالعنا عبارة مثل: "وجزع عليه جزعاً شديداً" في تعازي المعزّين في فقد الأبناء الذكور. وهي جملة حاليّة تصف حال الآباء، ومنها: "وجزع رجل على ابن له فشكا ذلك إلى الحسن..."[(3)]. ومنه: "عزّى موسى المهدي إبراهيمَ بنَ سلمٍ على ابنٍ له ماتَ، فَجزِعَ عليه جزعاً شديداً"[(4)]، وغيرها.

وقد روى المبرّد أنّه قد "مات ابنٌ لأرْطَأَةَ بنَ سُهَيَةَ المُرِّي من غطفانَ يقال له عمرو، فأقامَ على قبرهِ حوْلاً يأتيهِ كلَّ غداةٍ، فيقولُ: يا عَمْرو، هل أنت غادٍ معي؟"[(5)].

---

(1)عيد، رجاء، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ط1، منشأة المعارف، الإسكندريّة، 1993، ص78.
(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3/ ص(64- 65).
(3) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج3/ ص259.
(4) نفسه.
(5) المبرّد، التعازي والمراثي، ص115.

وهو استفهام يشي بالتفجّع والذهول وعدم التصديق. حتّى الحجّاج الذي ضُرب به المثل في الشدّة والبأس والقسوة ذكر أنّه: "لمّا مات محمّد بن الحجّاج جَزِعَ عليه، فقال: إذا غسّلتموه فآذنوني به، فأعلموهُ به، فدخلَ البيتَ فنظرَ إليه، فقال:

الآنَ لمّا كنتَ أكملَ مَنْ مَشى وافترَّ نابُك عن شباةِ القارحِ
وتكاملَتْ فيك المروءةُ كُلُّها وَأَعنْتَ ذلك بالفعالِ الصالحِ

فقيل له: اتّق الله واسترجع. فقال: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون" وقرأ: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾[1].

ونلحظ أنّ المعزّي يلجأ إلى الأمر "اتّق الله واسترجع" ليشكم حالة الجزع التي استبدّت بالمعزّى، ونلحظُ كذلك استعانة الفاقد بآيات من القرآن الكريم تهدّىء القلب والنفس. ولا ريب أنّ غير المسلم لديه طقوسه وشعائره في مثل هذه الحالات من ظروف الحياة، أمّا المسلم فيؤوب إلى القرآن الكريم. وذكر المدائني "أنّ الحجّاجَ كان إذا سمعَ نَوْحاً في دارٍ هدَمَها، فلمّا ماتَ ابنُه وأخوهُ كانَ يُعْجِبُهُ النَّوْحُ"[2]. ممّا يدل على الألم الفظيع لفقد الأبناء.

ويعدّون موت الولد غاية المصاب، فلا فقد أقسى منه. وفي هذا يقول إبراهيم بن العبّاس في ابنه الذي مات[3]:

كنتَ السوادَ (وفي رواية أنت السوادُ) لمقلة تَبْكي عليَّ وناظِرُ
من شاءَ بَعْدُكَ فلْيَمُتْ فعليْكَ كنتُ أُحاذرُ

(1) المصدر السابق، ص 119، والآيتان من سورة البقرة (156- 157).
(2) المدائني، كتاب التعازي، ص60.
(3) ابن حمدون، محمّد بن الحسن بن محمّد بن علي (ت 608هـ)، التذكرة الحمدونيّة، تحقيق إحسان عبّاس وبكر عبّاس، دار صادر، بيروت، ط1، 1996، ج4/ ص241.

ويبدو الألم واضحاً في استخدامه التركيب (مَنْ شاء) الذي يفتح باب الموت على مصراعيه لمن يشاء، فأيّ موتٍ بعدَ موت الولد لا أهميةَ لهُ؛ فهو وحده محلّ العناية والحذر بالنسبة إلى الشاعر. ثم يبدو الألم كذلك في استخدامه لام الأمر "قليمت" الذي يدل على نوع من الاستسلام وعدم المبالاة لأيّ حدث أو أيّ موتٍ بعد ذلك؛ فالأسوأ هو ما حدث فعلاً.

وأكثر قصص التأسّي التي يذكرونها مضرباً للصبر والاحتساب هي في فقد الأبناء؛ لأنّ من فقد ابناً وصبر فهو الصابر.وكلّ هذا إنّما يعكس مكانة الابن الذكر في حياة أسرته، وعند أبيه وأمه، في المجتمع العربي الجاهلي والإسلامي على السواء. وقد ركّزنا هنا على الآباء لأنّ النساء سيفردن بالقراءة في مفردة تالية.

إنّ النصوص السابقة وما داخَلَها من إشارات حول أعراف المجتمع ومعتقداته، تؤكّد ما يذهب إليه علماء اللّسان الاجتماعي من أنّ "مجمل الاختلافات بين اللّغات تقع ضمن المنظور الاجتماعي"[1]؛ فهذه اللّغة هي "العلاقة التي يُعرف بها أعضاء الجماعة، والنسب الذي إليه ينتسبون"[2]. فتصبح اللّغة ضمن هذا المنظور ميسماً يميز الجماعات المختلفة.

عملية الاتصال في رسالة التعازي

يدرس علماء اللّسان الاجتماعيّون المعطيات المشكِّلة للموقف الكلامي، وعلى وجه التعيين أطراف الخطاب وقناة الاتصال، وكذلك المعطيات الاجتماعيّة المؤثّرة في اللّغة، التي تشكِّل الإطار الاجتماعي للحدث الكلامي[3].

(1) لويس، م. م، اللّغة في المجتمع، ترجمة تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2003، ص281.

(2) فندريس، جوزيف، اللّغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصّاص، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950، ص7.

(3) انظر: بوشوك مصطفى، علم اللّغة الاجتماعي وتعليم العربيّة الفصحى، المدرسة العليا للأساتذة، الرباط، العدد (4-5)، 1978، ص42. ومصطفى لطفي، اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعي، معهد

ومن الظواهر التي يمكن الإشارة إليها في هذا الإطار اختلاف رسائل التعزية باختلاف قناة الاتصال. ونفرّق هنا بين المنطوق والمكتوب، وهذه النقطة –على وجه التعيين- هي التي حوّلت رسالة التعزية من كونها مظهراً اجتماعيّاً/لغويّاً دالاً على تبادل المشاعر والتعاطف الإنساني إلى فنّ قائم بذاته، وذلك مع تطوّر صنعة الكتابة في المجتمع العربي المسلم، وأنّ الكاتب أصبح أحد موظفي الدواوين الرسميّة للخلفاء، وظهرت طبقة محترفة من الكتّاب صنعتهم هي الكتابة.

وبالعودة إلى كتاب غرر البلاغة للصابي (ت 448هـ)، مثلاً، يمكننا أن نلحظ التعازي وقد استحالت فناً له سماته الخاصة، وتأثّره بألوان البلاغة التي وسمت هذه المرحلة الزمنية فيما بعد القرن الرابع الهجري. ويمتدّ هذا السمت فيما أورده النويري (ت 733هـ) من تعاز في كتابه "نهاية الأرب". ويُلْحَظُ أنّ الصابي، مثلاً، لا يورد في رسائل التعازي اسم مرسل أو اسم متلق، أو حادثة موت بعينها، ممّا يدلّ على أنّه يقصد التمثيل للفن الماثل فيها حسبُ.

وممّا أورده الصابي رسالة التعزية الآتية: "لو كان الموتُ يردُّ مأخوذاً، أو يتركُ موجوداً، والجزعُ ينفعُ مَوْقُوَذاً، أو يعيدُ مَفْقوداً؛ لاعترضَ الرجاءُ وأَمْكَنَ البقاءُ، وخفَّ الداءُ، وقَرُبَ الدواءُ، ولكنَّ الطمعَ فيما لا طمعَ فيهِ صعبُ المرامِ، زَلِقُ المقامِ، غَرورُ الوعدِ، خَفورُ العهدِ، يُمَنيِّ باطِلاً ولا يُجْدي طائِلاً. والمتعلِّق بما لا مُتَعلَّق به، طويلُ العناءِ، قليلُ الغناءِ، لا يمنعُ مقدوراً ولا يدفعُ مَحْذوراً، ولا يروي من غلّة، ولا يبرىءُ من عِلّة. وإذا كانَ ذلكَ كذلك، ففي الصبر مندوحةٌ، وفي التسليمِ راحةٌ، وفي العمومِ

الإنماء العربي، بيروت، 1976، ص47. وصبري السيّد، علم اللّغة الاجتماعي: مفهومه وقضاياه، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، ط1، 1995، ص7. ومحمود السعران، اللّغة والمجتمع: رأيّ ومنهج، بنغازي، ط1، 1958، ص56.

أُسوةٌ، وفي الوجوبِ سَلْوةٌ، وإلى ما عند الله مُنْقَلبٌ، ولِما وعدَ بهِ من الرحمةِ مُرْتَقَبٌ"[1]. وهذه الرسالة تقوم على أربعِ بنى تركيبية:

الأولى: وتشتملُ على جملة الشرط بـــ"لو" وجوابها ومعطوفاتها "لو كان الموت لاعترض الرجاء..".

الثانية: وتشتملُ على جملة استدراكيّة بـــ" لكن"، وهي قوله:"ولكن" الطمع فيما لا طمع...ولا يجدي طائلاً".

الثالثة: وتشتملُ على الاستئناف، وهي جملة خبريّة مثبتة: "والمتعلّق بما لا متعلّق به...ولا يبرىء من علّة".

والرابعة: وتشتملُ على جملة الشرط بـــ"إذا وهي قوله:"إذا كان ذلك كذلك ففي الصبر مندوحة..".

وفي جانب المضمون، فإنّ البنى الثلاث الأولى تقرّر أنّ الجزع، والسعي إلى المستحيل بتغيير ما أحدثه الموت، والتعلّق بما لا يتعلّق به من الأماني الكاذبة، إنّما هو عديم الجدوى. وفي المقطع الرابع يقرّر أنّه في ضوء ما تقدّم، فإنّه ليس للمرء سبيل سوى الصبر والتسليم إلى راحة نفسه وأجر ربّه وثوابه ورحمته. وهذا المضمون لا يخرج كثيراً عن مضامين رسالة التعازي في القرون الأولى. ومن وجوه التشابه بين لغة هذه الرسالة ورسائل التعزية في القرون السابقة توظيف أسلوب الشرط، وهما هنا بـــ"إذا" و"لو"؛ وهما من الأوعية اللّغويّة المفضّلة في رسائل التعازي، وأسلوب الاستدراك وهو شائع كذلك.

أمّا في جانب الاختلاف، فإنّ صيغة الدعاء تغيب، ولفظ الجلالة لم يذكر سوى مرّة واحدة، ونجد أنّ ألوان البلاغة والبديع تملأ النص، وبهذا الملمح -تحديداً- يمكننا أن ندرك الفرق بين رسالة التعازي في العصر الجاهلي والقرون الأولى من الإسلام

(1) الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت 448هـــ)، غرر البلاغة، حقّقه وقدّم له محمد الديباجي، دار صادر، بيروت، ط2، 2002، ص186.

وبين هذه الرسالة؛ ففيما اتسمت رسالة التعازي في العصرين الجاهلي والإسلامي بالبساطة والعفويّة والتلقائيّة، واتسمت الإسلاميّة بالتأثّر بالقران الكريم والهدي النبوي فيما يتصل بمسألة الموت وأجر الصابرين، نجد هذه الرسالة تحفل بالصنعة وألوان البديع. وانظر إن شئت السجع في: (مأخوذاً، وموجوداً، وموقوذاً، ومفقوداً). و(الرجاء، والبقاء، والداء، والدواء). و(المرام، والمقام). و(الوعد، والعهد). وانظر إن شئت الطباق في: (يردّ ويترك)، و(الداء والدواء)، و(يمنّي ولا يجدي). والجناس في: (عناء وغناء). وكذلك تساوي الجمل وتوازيها، وغيرها من ألوان البلاغة.

كما يُلْحَظُ أنّ الخطاب فيها عام جداً، يصلح لأيّ معزّىً به. وليس فيه أيّة خصوصيّة لمعزّىً به بعينه، بينما لحظنا أنّ رسالة التعازي فيما سبق من عُصُر كانت تتقولب بحسب المعزِّي والمعزّى به، وحسب السياق وطبيعة الفقد. وكأنّما من وضع هذه الرسائل قصد أن تكون نماذج لمن أراد التدرّب على كتابة رسائل التعازي؛ فهي تشبه الكليشيهات الجاهزة –إن جاز التعبير- وهذا ملمح واضح في الفرق بين مرحلتين. ويمكننا أن نقول إنّ هذه الرسائل تفتقد إلى الروح التي سادت رسائل التعزية في العصر الإسلامي الأول؛ وبذا تصبح لغة الخطاب في رسالة التعزية ميسماً يميّز المرحلة التاريخيّة التي قيلت أو كتبت فيها.

ومن الظواهر كذلك اختلاف رسائل التعزية بحسب اختلاف أطراف الخطاب وسياق الحال؛ فرسالة التعزية التي يصدرها عوام الناس تختلف عن تلك التي تصدر عن الخلفاء. ويفرّق ابن حمدون بين الخلفاء والرؤساء من جهة والأكابر من جهة أخرى؛ ويقصد بأكابر الناس الرعيل الأول من الصحابة والتابعين وبعض خلفاء بني أميّة[1]. وهم شديدو التأثّر بالهدي النبوي وبتعاليم القرآن الكريم في الصبر والاحتساب وما يقال وقت المصيبة، وعلى رأس أولئك: الخلفاء الراشدون، وكبار الصحابة. وهؤلاء تميّزوا عن الناس في طبيعة الرسائل التي أطلقوها، وتميّزوا في تقبّلهم

(1) نفسه، ج4/ ص197.

للمصيبة فكانوا نماذج مضيئة للصبر والتأسّي. ومن أكثر من ركّز عليه الكتّاب عمر بن عبد العزيز، في فقده لبعض أهل بيته وصبره واحتسابه[1]. فممّا نقل عن عمر بن عبد العزيز حين عزّاه الناس بوفاة ابنه عبد الملك قولهُ: "الحمدُ للهِ الذي جعلَ الموتَ حتماً واجِبَاً على خَلْقِه ثمّ سَوَّى فيه بَيْنَهم، فقالَ عزَّ وجل: "كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ"[2].

فهذه الإجابة تعكس وضع المتلقّي وقربه من مفاهيم الصدر الأوّل للإسلام؛ ولذا نجد فيها آية قرآنيّة، ونجد فيها لغة قويّة واضحة وإيماناً عميقاً. ونجد فيها خطاباً عامّاً عن الموت، يحاول فيه المرسل ألاّ يظهر شخصه بأيّ صورة. وإنّما هو حديث متّصل بالموت، وفق رؤية واضحة مستمدّة من الكتاب والسنّة. كما تعكس احتساب الخليفة لموت ابنه وتقبّله له وهو سمت هؤلاء الأكابر من الرعيل الأوّل. ظهر هذا الاحتساب في التحميد، ثمّ في تقبله لحتمية الموت ووجوبه على الخلق جميعاً، وفي استحضار النص القرآني المتصل بهذا المعنى، فيظهر المرسِل وكأنّه الذي يواسي وليس الذي يُواسَى.

أمّا الخلفاء المتأخّرون من بني أميّة فنلحظ تغيّراً نسبّياً في لغة خطابهم، ومنه ما أورده المبرّد أنّ مروان بن محمد كتب إلى ولد الْمِسْوَرِ يعزّيهم عن أبيهم: "قد بلغَ أميرُ المؤمنينَ الذي كانَ من نازلِ قضاءِ اللهِ في الْمِسْوَرِ بن عمرو، وما اختارَ اللهُ لهُ منَ المصيرِ إليهِ؛ فعندَ اللهِ يَحْتَسِبُ أميرُ المؤمنينَ مُصَابَهُ، ونِعْمَ المُتَوفَّى توفَّاه اللهُ من بينكم، وفي جودِ اللهِ الخلفُ الكافي. وقد أعاضَكُم اللهُ من رزيئَتِكُم رأياً من أميرِ المؤمنينَ جميلاً، فيه حسنُ الخلف عليكم؛ فَلْتَحْسُنْ ظنونُكم بربِّكم وخليفتِكم، بأنّ الله لم يَقْبِضْ وليّاً لهُ إلاّ أحسنَ خِلافَتَهُ في ولدهِ وأهلِ لُحْمَتِهِ"[3].

(1) انظر مثلاً: المدائني، كتاب التعازي، ص (19-23) والمبرّد، التعازي والمراثي،ص(37-45)،وابن حمدون، التذكرة الحمدونيّة،ج4/ص(261-263).

(2) المدائني، كتاب التعازي، ص 20.

(3) المبرّد، التعازي والمراثي، ص85.

وهي رسالة ذات طابع رسمي، ولا نجد فيها الدعاء المأثور في حالة التعزية، وفيما كان المعزّي فيما سبق يطلب من المتلقّي أن يحسن ظنّه بالله، وأن يصبر ليكون له في صبره خلف وأجر له عند مصيبته؛ فإنّنا في هذه الرسالة نَلْحَظُ ظهور الخليفة بنفسه ظهوراً واضحاً، ويرى أنّ الله أعاض المصابين برأي جميل من أمير المؤمنين. ولمّا طلب منهم أن يحسنوا ظنونهم بالله عطف نفسه على لفظ الجلالة من غير (ثمّ) فقال: فلتحسن ظنونكم بربّكم وخليفتكم، ولم يقل: "ثمّ خليفتكم" كما ينبغي. ولا ريب أنّ اختلاف المرسل طبيعة ومنصباً هي التي غيّرت طبيعة الخطاب في الرسالة. وهي تعكس نسقاً ثقافيّاً مختلفاً، نوعاً ما، عن خطاب الراشدين مثلاً، أو الرعيل الأول من كبار الصحابة، الذين مال خطابهم إلى الحديثِ عن الصبر، والأوبة إلى الله. وكان ظهورهم الشخصي في رسائل التعزية معدوماً، والذي كان يظهر هو حديث عن ضرورة الالتزام بما أمر الله في مثل هذا المصاب، وكانت رسائلهم تحفل بالآيات والأحاديث.

إنّ المرسِل يَظْهر حاضراً في النّص الذي يصدر عنه، وهو يوظّف في رسالته كلّ ما من شأنه أن يوصلها إلى غرضها، وهو التّأثير في المتلقّي على نحو من الأنحاء، لكنْ - وكما يقول انكفست – فإنّ "المتحدّث يلجأ إلى إضافة مؤثّرات أخرى تُبرز في المقام الأوّل ذاته، وتُبرز من ناحية أخرى – وإنْ جزئيّاً – المؤثّرات الاجتماعيّة التي تعمل في داخله"[1].

إنّ هذه الرسالة مكتوبة، والمكتوب غير المرتجل كما هو معلوم وقد اهتمّ براون ويول – من مدرسة تحليل الخطاب – برصد الفروق بين المحكيّ والمكتوب، فكلّ منهما يفرض على مستعمل اللّغة جملةً من الاعتبارات المختلفة نوعاً ما؛ من أبرزها أنّ الكاتب بإمكانه أن يراجع ما كتب، وأن يتأنّى بين كل كلمة وأخرى دون أن يكون

(1) عيد، رجاء، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ص37.

عُرضةً لتدخّل المتلقّي، وأن ينتقي عباراته بأناة، وأن يراجع ما كتب[1]. واهتمّ بول ريكور برصد معالم التحوّل العميق الناشئ عن التحوّل إلى الكتابة، وكيف تنوب علامات مادية في نقل الرسالة محلّ التعبير الصوتي أو التعبير بالأسارير. وأنّ هناك قوّة كلاميّة قابليتها ضعيفة على التسطير، ومنها الفعل التمريري، وهو رغبتك بأن تفعل شيئاً ملموساً من خلال ما تقول[2].

كما تختلف رسالة التعزية بحسب المتلقّي، ومنه ما عزّى به مالكُ بنُ أسماءَ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ عن ابنهِ أبان بن عبد الملك فقال: "عَظَّمَ اللهُ أجرَكَ يا أميرَ المؤمنينَ، ما على ظهرِ الأرضِ أعزُّ فقداً منك، ولا واللهِ أكفاءُ بالواحدِ منكم أهلَ البيتِ"[3]. فهذا الخطاب لا يوجّه لعامّة الناس، وإن كان قد اشتمل على الدعاء المأثور في مثل هذا الموقف. وهذه المبالغة في النفي أنّه لا يوجد على ظهر الأرض أعزّ فقداً من المتلقّي، لا تكون إلاّ في مثل هذا الموقف؛ حيث يقف رجل يريد أن يجامل خليفة المسلمين في فقد ابنه، فيغيب الصدق. وتكاد تنقله المبالغة إلى الممالأة، وعزّز هذه المبالغة صيغة القسم: "ولا والله"، والتفضيل "أعزّ"، وتسوير النفي ليشمل ظهر الأرض جميعاً.

ومنه ما أورده النويري أنّ البلاذري "دخل على علي بن موسى الرضا يعزّيه عن أبيه فقال له: أنتَ تجلُّ عن وصفِنا، ونحن نُقصِّرُ عن عِظَتِكَ، وفي علمِكَ ما كفاكَ، وفي ثوابِ اللهِ ما عَزَّاكَ"[4]. وهذا يقال لعالم كبير له مكانته من آل علي بن أبي طالب، ولا يقال لأيّ مخاطَب، يظهر ذلك في كثرة ضمائر الخطاب بصورها المختلفة متصلةً ومنفصلةً على وجه التعظيم كما في: (أنت)، وكاف الخطاب في: (عظتك،

(1) براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، ط1، 1997، ص5.

(2) ريكور، بول ، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص57.

(3) المبرّد ، التّعازي والمراثي ص119.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج5/ ص165.

وعلمك، وكفاك، وعزّاكَ). والرسالة فيها ألوان من البديع، ومنها: الطباق بين (تجلّ وتُقصِّر)، والسجع في (كفاك وعزّاك).

والتعزية بالأطفال تختلف عن التعزية بالكبار؛ فالدعاء لمن فقد صغيراً يكون عادة "عوّضك الله منه ما عوّضه منك"، ولمن فقد كبيراً يقال:"عظّم الله أجركم". ومنه ما عزّى به أبو بكر عُمَرَ (رضي الله عنهما) عن طفلٍ أصيبَ به فقال: "عَوَّضَكَ اللهُ عنهُ ما عَوَّضَهُ منك"[1]. ويقصد بذلك عوّضك الأجر والثواب والجنّة؛ ذلك أنّ الطفل إن مات يستقبل أبويه ويدخلهما الجنّة. ومادّة هذا الدعاء استلهمها المعزّي من الهدي النبوي؛ ففي الحديث: "صغارُهم دَعَاميصُ الجنّةِ يَتلَقّى أحدُهم أباه - أو قال أبويه -فيأخذُ بثوبه– أو قال بيده- كما آخذُ أنا بصنَفَةِ ثوبِك هذا فلا يتناهى- أو قال فلا ينتهي-حتّى يُدْخِلَهُ اللهُ وأباه الجَنَّةَ"[2]. ويتّصل بهذا أيضاً ما كتب به رجل إلى صديق له، ولد له مولود فمات من يومه، فجزع عليه[3]:

فإنْ كنتَ تبكيه اطِّلابَاً لنَفْعِهِ فقد نالَ جنّاتِ الخلودِ مُسَارِعَاً
وإن كنت تبكي أنّهُ فاتَ عَوْدُهُ عليكَ بنفعٍ فاسْلُ قد صارَ شافِعاً

فالصغير نفعٌ لأهله إذا مات، وهو شفاعة لأبويه يوم القيامة إذا صبرا لفقده. ومثل هذا لا يقال إلاّ في التعازي المتّصلة بالصغار. وهذا من التطبيقات الواضحة لتأثير البعد الديني في البنية اللّغويّة: مفرداتها، وتراكيبها، وصيغها.

وتختلف رسالة التعزية باختلاف سياق الحال؛ ومنه ما أوردوه أنّه "لمّا مات معاوية بن أبي سفيان(t) دخل على يزيد أشراف أهل الشام، فلم يجتمع لأحد منهم

---

(1) نفسه، ج4/ ص273.

(2) الإمام مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، صحيح مسلم، بترقيم وترتيب محمد فؤاد عبدالباقي، مكتبة ألفا، القاهرة، ط1، 2008، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، رقم الحديث (2635)، ص741.

(3) ابن حمدون، التذكرة الحمدونيّة، ج4، ص279.

تعزية مع تهنئة؛ فدخل عليه عطاء بن أبي صيفي فقال: يا أميرَ المؤمنينَ أصْبَحْتَ رُزيتَ خليفةَ اللهِ، فقد قضى معاويةُ نَحْبَه، فغفرَ اللهُ ذَنْبَه، وأُعْطِيتَ بعدهُ الرياسةَ، ومُنِحْتَ السياسةَ، فاحتسِبْ عندَ الله عظيمَ الرزيّةِ، واشكرْ اللهَ على حسنِ العطيّةِ"[1]. فالسياق اقتضى أن يجمع المعزِّي بين التعزية والتهنئة، واختلطت ألفاظهما اختلاطاً عجيباً في هذه الرسالة، وما كان هذا ليكون لولا أنّ المعزَّى هو من أصبح الخليفة بعد موت أبيه.

وقد تكشف رسالة التعازي عن بعض الظواهر اللهجيّة عند قبائل العرب. ومنه ما نجده في قول علقمةَ بنِ المنذرِ معزِّياً أخاه عَمْراً لوفاة أخيه مالك قال: ".... وإنَّ أكملَ الأداةِ عندَ المصايبِ الصبرُ واليقينُ، لأنَّ الهاربَ لابدَّ له ممّا هو كايِن، وإنّما يتقلَّبُ في كفِّ طالِبِهِ فأينَ المهربُ؟!"[2]. فهذا النصّ يشتمل على إحدى الظواهر اللهجيّة المتمثّلة بتسهيل الهمز في قوله: "المصايب، وكاين". وهي من لهجات أهل اليمن الذين يتحدّرون من الحجاز[3]. وهذه الظواهر مما تهتمّ اللّسانيات الاجتماعيّة برصده والوقوف عليه. [4]

المرأة في رسالة التعازي

يعدّ ظهور المرأة في رسالة التعازي محدوداً إذا ما قيس بظهور الرجل. ويلفتنا أنّ حضورها في المراثي الشعريّة، التي قيلت في فقد الأبناء والإخوة والآباء والأقارب أو حتّى الأحبّاء، أكبر بكثير من حضورها في رسائل التعازي. وربّما كان مردّ ذلك

(1) المدائني، كتاب التعازي، ص41.

(2) نفسه، ص89.

(3) انظر: رابين، تشيم، اللّهجات العربيّة القديمة في غرب الجزيرة العربيّة، ترجمة عبدالكريم مجاهد، دار الفارس، عمّان، ط1، 2002، ص92.

(4) انظر: فاسولد، رالف، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة ابراهيم بن صالح الفلاي، جامعة الملك سعود، 2000، ص 45.

أنّ رسائل التعازي أكثرها جاء نثراً، والشعر أسهل حفظاً وتناقلاً ورواية وانتشاراً، وليس الأمر كذلك فيما يتّصل بالنثر. وربّما كان مردّه أنّ الرواية عن الرجال أكثر يسراً في حالة الموت لاحتجاب المرأة واستتارها عن الرجال. وربّما كان احتفاء العرب بنقل ما يتّصل بالمرأة قليلاً أيضاً. وربّما أنّ رسالة التعازي تقوم بشكل رئيس على فكرة الصبر، والنساء من طبعهن الجزع، ولا يتفّق هذا مع غرض التأليف في التعازي، كلّ ذلك ممكن.

وتطالعنا ثلاث حالات للمرأة في رسالة التعازي: الأولى حين تكون المرأة فاقدة، ومن ثمَّ ينبغي أن تكون معزّاة. والثانية حين تكون فقيدة أو معزًّى بها. والثالثة حين تكون مُعزِّية.

وفيما يتّصل بالمرأة الفاقدة فيمكننا أن نَلْحَظُ نموذجين حاضرين لها في كتب التعازي لأنَّ الصبر والجزع: نموذج المرأة الجازعة، ونموذج المرأة الصابرة، مع رجوح الكفّة لنموذج الصبر، مع أنّ حضورها في الحياة عكس ذلك تماماً؛ فمن المعروف أنّ المرأة أشد عاطفة وأقلّ قدرة على التجلّد أمام المصائب، خاصّة إذا كان الفقيد ابناً أو أخاً؛ فالجزع هو الأصل عند النساء، والتصبّر هو الاستثناء. يقول في هذا أبو تمّام من خلال تعزية لمالك بن طوق[1]:

خُلِقْنـــا رِجَـــالاً للتجلُّـــدِ والأَســـى وتلـــكَ الغـــواني لِلْبُكـــا والمـــآتمِ

"وكانوا في الجاهلية إذا بالغوا في الجزع حلق النساء رؤوسهن، ولطمن خدودهن بالنعال"[2]. وقال معاوية، وقد ذكر عنده النساء، وكأنّه يذكر ضرباً من محاسنهن: "ما مرّض المرضى، ولا ندب الموتى مثلهن"[3]. وكان بعض الأولياء يوصون بنـــاتهم ألاّ

(1) النويري، نهاية الأرب، ج5/ ص211.
(2) المبرّد، التعازي والمراثي، ص68.
(3) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج3/ ص192.

يجزعن، وألاّ يخْمِشْن وجهاً، أو يَحْلِقن شَعراً عند وفاتهم[1]. فالندب والبكاء هو صنيع النساء في العادة في أوقات الفقد والمصاب، واستحضار نماذج المرأة الجازعة في كتب التعازي، إنّما هو من قبيل التنفير من الجزع وعدم جدواه في مقابل الصبر. ويَعدّ العرب بكاء النساء وجزعهن ممّا لا طائل وراءه، وعلى الرجال أن يترفّعوا عن مثله؛ فهذا البكاء للنساء وليس للرجال، يقول في هذا يزيد بن الحكم الثقفي معزّياً[2].

إنْ تحتسبْ تُؤْجَرْ وإن تبْكِهِ تكنْ كباكيةٍ لم يحي مَيْتاً بكاؤها

وأكثر جزع النساء على الأبناء؛ فالأم هي التي تحمل صغيرها جنيناً ثم يَصْدُر من خلالها إلى الحياة، فجزعها عليه متوقّع ومبرّر. ولذلك فأكثر رسائل التعازي المتعلّقة بالنساء متصلّة بفقد الأبناء، ثمّ الإخوة وهم سند المرأة في الحياة، ثمّ الأزواج، ثمّ الآباء، ثمّ بقيّة الأقارب والأحبّة، وفقاً لما هو كائن في كتب التعازي. وتحضر أضرب الإنشاء الطلبي بشدّة في تشكيلات الجزع عند المرأة، ومنها : النداء والاستفهام، وهي أكثر قدرة على التعبير عن التفجّع والتحسّر، وكذلك صيغ التضعيف، وكذلك التكرار المعبِّر عن الألم، وكذلك توظيف "العين" لصلتها بالبكاء والدموع.[3]

ومن الأمثلة على هذا ما روي عن زوجة عبيد الله بن العبّاس جويرية بنت خالد بن قارظ الكنانية، وقد قَتلَ بُسْرَ بنَ أَرْطَأَةَ ولديْها، وكانا طفلين، فحزنت عليهما حزناً شديداً، وممّا قالته[4]:

يا مَنْ أحسَّ بُنَيْيَّ اللّذيْنِ هُما كالدّرتيْنِ تَشَظَّى عنهما الصَدَفُ
يا من أحسَّ بُنَيْيَّ اللّذيْنِ هُما قلبي وطرْفي فَقَلْبي اليومَ مُخْتَطَفُ

(1) نفسه، ص158.
(2) المدائني، كتاب التعازي، ص60.
(3) انظر مثلاً: المبرّد، التعازي والمراثي ص46و ص 43 و ص 142.
(4) نفسه، ص46.

يا من أحسَّ بُنَيْيَّ اللّـذيْنِ هُمـــــا مُخُّ العظــامِ فمخّــي اليــومَ مُزْدَهَــفُ
نُبِئّتُ بُسْراً وما صدَّقْتُ مــا ذَكَــروا من قولِهم ومن الإفــكِ الــذي اقْتَرَفــوا
أَنْحى علَى وَدَجيْ شِــبْليَّ مُرهَفَـــةً بَغْيَاً كذا وعظــيمُ البغــيِ يُقْتَـــرَفُ

وفقد هذه المرأة مركّب؛ فالفقيدان ابناها، وهما طفلان صغيران، ومقتلهما كــان بصورة بشعة أذهبت صوابها. وألمها ينضح من كلّ كلمة في المقطوعــة الــسابقة؛ فالتكرار المتفجّع في ثلاثة أبيات متتالية مقروناً بالنداء، "يا من أحسّ بنيي اللذين هما"، يدمي القلب. والتكرار -عند علماء مدرسة تحليل الخطاب- من الوسائل الخطابية التي تعمل على تقويّة القوة الإنجازيّة للمنطوقات[1]. وجاء إخبارها عن ولــديها موجعــاً، تقول: "هما كالدّرتين"، "هما قلبي وطرفي"، "هما مخّ العظام"، وهي أخبار تنبىء بفداحة المصاب. ويبدو التفجّع ماثلاً في وصفها طريقة مقتلهم: "أنحى علــى ودَجــي شــبليّ مرهفةً". وتعدية الفعل "أنحى" بالهمزة، ثمّ بحرف الاستعلاء(على) ترسم صورة الظلم الواقع على الشبلين الصغيرين. وفي قولها: "شبلين" استحضار لما سيكونان عليه لــو أنّهما بقيا وكبرا، وهما ابنا عبيد الله بن العباس، ومــن آل البيــت الأطهــار. وعــدم تصديقها ما حدث بادٍ في النص؛ نراه في الفعل المبني للمجهول "نُبِّئْتُ"، وكأنّمــا هــو خبرٌ آتٍ من بعيد، وقد لا يكون صحيحاً. وكذلك في قولها: "وما صدّقت ما ذكــروا"؛ فالفاجعة كبيرة وفوق التصديق.كما أنّ المعجم في المقطوعة كلّه حزين.

وتَعُدُّ المرأة فقد الابن منتهى المصيبة؛ وهو مُطَعِّمٌ ضدّ أي مصيبة بعدها، وضدّ أي ألم بعدها. وفي هذا يروي المبرّد أنه "مات بنون لامرأة تِباعاً فكلّمناها، فحدّثتنا ساعةً ثمّ ضَحِكَتْ، فقالت لها امرأةٌ: أتضحكين؟! أجنونٌ بكِ أم فَنَد[*] قالت: لا، وأبيكِ، ولكنّ الشرَّ لم يَجِدْ لي مَزيداً"[2]. واستدراكها بالنفي هو استدراك على عظم المصيبة؛

(1) العبد، النص والخطاب والاتصال، ص315.
(*) الفَنَد: خطأ الرأي والقول.
(2) المبرّد، التعازي والمراثي، ص140.

فهي تعدّ فقد الأبناء المصيبة التي لا مزيد بعدها. وتعبيرها عن الموت بالشرّ، ربّما هو لعظم صدمتها. وضمير المتكلم في "لي" إحساسٌ منها بأنّ ألم هذه المصيبة مركّزٌ عليها وحدها، وهذا يعاظمه عليها. وتؤدي صيغة القسم "لا وأبيكِ" دورها الفاعل في وصف فاجعة هذه المرأة، وتكمل صيغة النفي "لم يَجد" هذا الوصف وعظمته.

ونقل المبرّد أيضاً أنّه "قيل لأعرابيّة: ما أحسنَ عزاءَكِ عن ابنِك! فقالت: إنّ فقدانيهِ أمّنني من المصائبِ بعده"[1]. وكأنّما موته هو نفسه ترياق الصبر على أيّ مصيبة؛ فلا أفدح من هذه المصيبة. وقولها: "أمّنني" تعبير عميق عن عظيم ألم فقد الأبناء؛ فقد عبّرت عن منتهى الألم بالأمان؛ إذ لا ألم بعده. وهذه نماذج حسبُ من تشكّلات لغة الجزع عند المرأة عند فقد الأبناء. أمَّا في فقد الإخوة فيستحضر أصحاب كتب التعازي نموذج الخنساء وبكاءها على أخويها[2]. ومن عجيب أنّهم استحضروا في مؤلّفاتهم نموذج الخنساء الجازعة، ولم يستحضروا نموذج الخنساء الصابرة على استشهاد بنيها الأربعة بعد الإسلام.

وتطالعنا أخبار كثيرة تصف جزع النساء على أحبّائهن في كتب التعازي[3]، يصل بعضها حدّ الموت جزعاً وحزناً[4]، وكلّ هذه الأخبار تؤكّد أنّ جزع المرأة هو المتوقّع، وخلافه هو الاستثناء. كما يذكرون بعض الأعمال التي تقوم بها المرأة الجازعة مثل: أن تتبع الجنازة[5]، أو أن تضرب فسطاطاً على قبر الزوج وتقيم فيه حولاً[6].

(1) نفسه، ص153.
(2) المدائني، كتاب التعازي، ص(27- 30).
(3) انظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج3/ ص (217- 236).
(4) نفسه.
(5) المدائني، كتاب التعازي، ص82.
(6) المبّرد، التعازي والمراثي، ص38.

وقليلة هي رسائل التعزية التي نجدها توجّه للمرأة الفاقدة عموماً، وللجازعة خصوصاً. ومنه ما نقله المبرّد أنه لمّا مات الحسن اشتدّ جزع خولة بنت زبّان وكانت زوجته، فقال زبّان[1]:

نُبِّئْتُ خولةَ أمسِ قد جَزِعَت ... مِنْ أنْ تنوبَ نوائبُ الدهرِ
لا تَجْزَعي يا خولُ واصْطَبِري ... إنَّ الكرامَ بُنُوا على الصبرِ

وكما هو متوقّع في خطاب المرأة الجازعة يطالعنا النهي عن الجزع: "لا تجزعي"، مقترناً بالنداء مع الترخيم: "يا خولُ". وهذا النداء فيه ضربٌ من التحبّب غرضه استجاشة المخاطبة لمزيد من الاستجابة للنهي؛ فالنهي ثقيل على النفس، خاصّة حين يتّصل الأمر بفقد الحبيب أو الزوج. ثمّ عزّز النهي بالأمر معطوفاً عليه: "واصطبري". والاصطبار هو حمل النفس على الصبر، وهو مناسب لحالة الجزع التي تمرّ بها المرأة الفاقدة هنا؛ فالصبر نفسه عسير، ولابدّ من حمل النفس عليه حملاً، والنهي والأمر يشكّلان طرقتين قويّتين يحرّكانها نحو الصبر والتماسك، وعزّز هاتين الطرقتين بتعليل جاء على شكل جملة خبريّة مثبتة مؤكّدة: "إنّ الكرام بُنوا على الصبر"، يريد أن يقول: "وأنتِ كريمة فلا يليق بك الجزع؛ فالكرام موطّنون على الصبر"؛ وكأنّما الجزع خلّة تثلم صنيع الكرام، فلا ينبغي ذلك لهم. واستخدامه الفعل "بُنوا" مبنيّاً للمجهول دليلٌ على استحكام خصلة الصبر فيهم؛ فهو بناء غير قابل للتزحزح؛ فخلق الصبر مزروع فيهم، ساكن في قلوبهم في كلّ حال، مهما كان الفقيد عزيزاً؛ وفي هذا تحضيض لها على الصبر؛ فبه تلحق بركب الكرام الذين تنتمي إليهم.

أمّا نموذج المرأة الفاقدة الصابرة فاستحضاره يتّفق أكثر وغرض التأليف في التعازي؛ فهي وضعت أصلاً ليكون ما فيها نماذج للتأسّي والاصطبار، بل إنّ نماذج

---

(1) نفسه، ص142.

الصبر عند المرأة، خاصّة في فقد الأبناء وهو أعظم المصيبة عندها، تعدّ نماذج متقدّمة في التأسّي؛ فمن عُهِدَ فيه الجزع ووجدناه يستعلي على المصاب ويصبر على الألم، هو محل تأسٍّ حقاً. وأكثر قصص التأسّي النسائية هي في فقد الأبناء.

وتبدو الشهادة خير عزاء للمرأة عند فقد الولد في المعركة، ومنه ما أورده المدائني عن "إخوة ثلاثة من بني قطيفة شهدوا يوم تُسْتُرَ، فاسْتُشْهِدوا، فخرجت أُمُّهم يوماً إلى السوقِ لبعض شَأْنِها، فتلقّاها رَجُلٌ قد حضر أمر تُسْتُرَ، فرأته، فسألته عن أمر بنيها. فقال: اسْتُشْهِدوا. فقالت: مقبلينَ أم مُدْبرينَ؟ قال: بل مقبلينَ، قالت: الحمدُ للهِ...نالوا الفوزَ، وحاموا الذِمارَ، بِنَفْسي هم وأبي وأمي"[1].

وهي قصّة تؤكّد قيمة الشهادة في المجتمع المسلم، وهي قيمة تدفع إلى الصبر وتهوين المصيبة، حتّى عند النساء المعروفات بجزعهن وقلّة تجلّدهن حين يتّصل الأمر بالولد. وتتجلّى هذه القيمة وعظمتها عندما نتذكر أنّ هذه المرأة قد فقدت ثلاثة من بنيها، لكّنه فقدٌ مشرِّف على أرض المعركة. وهذه الرسالة تطفح بالفخر والشعور بالعزّة. ويلفتنا أنّها اهتمت كثيراً بأن تعلم كيف قضوا أكثر من رغبتها في معرفة أنّهم قضوا، فسألت: "مقبلين أم مدبرين؟". وسؤالها هذا ليس عن كيفيّة موتهم مطلقاً، وإلاّ لكان سؤالها: "كيف ماتوا؟ لكنّ سؤالها كان عن كيفيّةٍ محدّدة هي الإقبال والإدبار، وأين هم منه. وأنْ تقابلَ أمٌّ مقتل بنيها الثلاثة بحمد الله يعكس القيمة العظيمة للشهادة في نفسها وفي نفس كلّ مؤمن.

وقد جمعت هذه المرأة كرامة الشهادة في جملتين فعليّتين يلخّصان حدث الشهادة وأهميّته؛ قالت "نالوا الفوز وحاموا الذمار". والذمار: ما وراء الرجل ممّا يحقّ أن يحميه، فأيّ كرامة أكبر من حماية الأوطان، والفوز بما عند الله من أجر؟!. ثمّ تتبع هذا بتفديتهم بنفسها وبأبيها وبأمها، وهو يدلّ على شدّة فخرها بهم، وكبير اعتزازها بصنيعهم. ولا يمكن لأمّ أن تفقد ثلاثة من أبنائها في وقت واحد، ثمّ يكون هذا موقفها،

(1) المدائني، كتاب التعازي، ص17.

وأن ترسل رسالة هذا مضمونها، وهذه لغتها، وتتحلّى بكلّ هذا الصبر وهذا الاحتساب، بل وهذا الفخر، إلاّ إن كانت على درجة كبيرة من الإيمان بالله، وعلى درجة كبيرة من اليقين بأنّ ما ينتظر أولئك الأبناء عند الله هو خير وأبقى. وهذه السمات ممّا يميّز رسالة التعازي في الشهداء عموماً. إنّ جملة " الحمد للّه" هي مركّب مكثّف يعكس تشكيلاً لغويّاً ثابتاً يقابل به المعزّي المؤمن رسالة العزاء التي يتلقّاها، والحمد خاص باللّه، كما يشير سيبويه حين يقول إنّه يقال "الحمد للّه" ولا يقال الحمد لزيد[1]، وهي جملة اسميّة دالّة على ثبوت وديمومة. وحمدها للّه ذو وجهين: حمدٌ للّه لأنّه مستحقٌّ للحمد دائماً. وحمدٌ لأنّ أبناءها قضوا شهداء (نالوا الفوز وحاموا الذمار)". وفي جملة الافتداء التي أتبعتها جملة الحمد، قدّمت الخبر (بنفسي) على المبتدأ "هم" دلالةً على استعدادها المنقطع النظير للافتداء بنفسها والمعطوفات (وأبي و أمي) تعمل على تقوية هذا الافتداء وتعميقه. مع ما نعلمه من مقام الأب والأم عند الإنسان.

ويقترب التشكيل اللّغوي للصبر عند المرأة الفاقدة الصابرة من التشكيل اللّغوي للصبر عموماً. ومنه ما نقله المدائني أنّه "مات ابنٌ لامرأة، فَحَسُنَ عزاؤها وصبرت، فقال لها رجلٌ: كنّا نرى الجزعَ في النساء، ولقد صَبَرْتِ وكَرُمْتِ. قالت: يا عَبْد الله، ما ميّز أحدٌ بينَ صَبْرٍ وجَزَعٍ إلاّ وجدَ بينهما مِنْهاجاً غيرَ متقاربٍ؛ أمّا الصبرُ: فحَسَنُ العلانيةِ محمودُ العاقبةِ، وأمّا الجَزَعُ: فصاحبُهُ غيرُ معوّضٍ عِوَضاً، ولو كانا رجليْنِ على صورةٍ كانَ الصبرُ أَوْلاهُما بالغلبةِ على الحُسْنِ في الخَلْقِ، والكرمِ في الطبيعةِ"[2].

---

(1) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت180هـ)، الكتاب، ط1، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت 1993، ج2، ص165.

(2) المدائنيّ ، كتاب التّعازي ص66.

وما نراه في هذا النص لا يختلف كثيراً عن تشكّلات الصبر عند الرجال؛ فقد قابلت هذه المرأة بين الصبر والجزع، فرأت أنهمّا منهاجان متباعدان؛ فالصبر محمود العاقبة وحسن العلانية. أمّا الجزع ففادح العاقبة ومذموم العلانية، ولن يعيد الجزع حبيباً أبداً. وصوّرت طبيعة الصبر بأنّه حسن في كل شيء. وقوله "كنّا نرى الجزع في النساء". إشارة إلى أنّ الجزع هو الموقف المتوقّع من المرأة، فإذا حادت عنه إلى الصبر فذلك أمر مستغرب يستحقّ الوقوف ويستحقّ السؤال. وقوله: "ولقد صبرت وكرمت" فيه أمران: الأول، أن الصبر مقترن بكرم الأخلاق. وهذا تكرّر في رسائل التعازي. والثاني، فيه سؤال؛ وكأنّه يقول لها: "فكيف أمكنك فعل ذلك"؟!!؛ أي كيف تجاوزت كونك امرأة تجزع للفقد، إلى شخص جلد صبور يمتلك نفسه وتوازنه أمام المصيبة؟ وجاء حديثها جواباً عن هذا السؤال.

أمّا هذا الجواب فكلمة المفتاح فيه هي: "التمييز"؛ أي التمييز بين خيارين: الصبر، والجزع: "ما ميّز أحد بين صبر...". والتمييز عمل عقلي، وهذا يعيدنا إلى القول إنّ المرء في وقت المصيبة يحاول أن يهدّىء جزع القلب وانفطار الفؤاد بفرامل العقل والوعي. وقولها: "أحدٌ" دليلٌ على أن ما ينطبق على الرجل ينطبق على المرأة، وينطبق على الجميع في حالة الوعي والتمييز، وهو الوصول إلى فكرة أن الصبر هو سيّد المواقف وقت المصيبة.

إنّ الاتّزان النّفسي الماثل في نفس هذه المرأة الصّابرة عبّر عنه عدد من الأبنية اللّغويّة وأساليبها؛ فأكثر حديث المرأة عن الصبر والجزع كان جملاً اسميّة: "أمّا الصبر فحسن العلانية محمود العاقبة"، "وأمّا الجزع فصاحبه غير معوّض عوضاً". واسميّة الجمل تعكس هذا الاتزان النفسي بدلالته الخاصّة على الثّبات واليقين؛ فالجمل الاسمية تدل عادة على الثبوت. أمّا أسلوب القصر ففيه نوع من اختصاص الصبر بالتميز، نجدْه في قوله: "ما ميّزأحدٌ بين صبر وجزع إلاّ وجد بينهما منهاجاً غير متقارب". وكذلك أسلوب المقابلة بين الجزع والصبر، الذي يعكس فيما يعكس وعياً

خاصّاً من المرسل بحقيقة الصبر والجزع وما بينهما من تباعد، وهذا لا يكون إلاّ للمتّزن نفسيّاً وعاطفيّاً.

وأمّا أسلوب الشّرط فيعكس وجهاً ثالثاً من هذا الاتّزان النّفسي: "ولو كانا رجلين على صورة كان الصبر أولاهما بالغلبة". وتقريب صورة الجزع والصبر على شكل رجلين هو رغبة من هذه المعزّاة بإظهار فضيلة الصبر؛ حسناً في الخلق وكرماً في الطبيعة.ثم استخدامها أسلوب التفضيل باسم التفضيل "أولاهما" إظهارٌ لمزيّة الصبر على صاحبه، وتعليل لاختيارها لهذا الصبر على الرّغم من ألمها. أمّا التكرار في هذا النص القصير فيعكس إلحاحها على خيار الصبر ونفورها من الجزع؛ نجد هذا التكرار في تكراره لفظة الصبر ثلاث مرّات ولفظة الجزع مرتين. وتكرار "غير" مرّتين للتنفير من الجزع، وتكرار الجذر (عوض) في: (معوّض وعوضاً).

وممّا يروونه في كتب التعازي قصّة "الانصاريّة التي اسْتُقْبِلَتْ بأبيها وابنها وزوجها شهداءَ في أُحُد، فسألت ما فعل النبي (r) قالوا: أمامكِ. فذهبت إليه، فأخذت بناصيةِ ثوبِهِ ثمّ جعلت تقول: بأبي وأمّي يا رسولَ اللهِ. لا أبالي إذا سَلِمْتَ من عَطَبٍ"[1]. واختلاف هذه الرسالة القصيرة عن غيرها من رسائل الصبر أنّها تصدر من امرأة قد فقدت أقرب الناس إليها: الأب والابن والزوج. لكنّ عظيم الإيمان في نفسها، ومحبّتها للرسول الله (r) أكثر بكثير من محبّتها لهؤلاء جميعاً. ولا يمكن قراءة هذا النص قراءة صحيحة لمن لا يفقه طبيعة الدين التي تقوم على محبّة الله ورسوله أكثر ممّا سواهما، ولا يمكن فهم صبر هذه المرأة بمعزل عن هذا النسق العقدي والثقافي الذي تصدر عنه.

وقد عبّرت هذه المرأة عن صبرها واحتسابها وفرحتها بنجاة النبي (r) بجملتين: الأولى جملة الافتداء، وهي شائعة في رسائل النساء الصابرات[2]، بل لعلّها سمة لغويّة

(1) نفسه، ج4/ ص313.

(2) انظر مثلاً: المدائني، كتاب التعازي، ص17 و23. والمبرّد، التعازي والمراثي، ص132.

نسائيّة لا نجدها كثيراً في رسائل الرجال الصابرين. وأمّا التفدية –هنا- فليست لأقاربها من أب وأخ وزوج وابن، بل لرسول الله (r). وأمّا الجملة الثانية فهي جملة فعليّة منفيّة بـــ (لا) مقترنة بفعل مضارع يفيد الحضور مع الديمومة؛ أي: لا أبالي فقد هؤلاء جميعاً إذا سلمت من عطب. وتنكير "عطب" هو للتعميم؛ أي كثير العطب أو قليله. وهذا النفي الحاضر والدائم للمبالاة لا يمكن ترجمة معناه حرفيّاً ونحن نستحضر حال هذه المرسلة المتلقّية معاً؛ فـــ "لا أبالي" لمن فقدت كلّ أولئك، غير "لا أبالي" لأخرى قد فقدت واحداً، أو لم تفقد أحدا.

وفي عزاء المرأة الفاقدة يروي أحدهم قال "أتيتُ امرأةً أُعزِّيها عن ابنِها، قال: فَجَعَلَتْ تُثْني عليه فقالت: "كانَ، واللهِ، مالُهُ لغيرِ بَطْنِه، وأَمْرُهُ لغيرِ عِرْسِه، وكان:

رحيـــبُ الـــذراعِ بـــالتي لا تُـــشينُه وان كانت الفحشاءُ ضـــاقَ بـــه ذَرْعـــا

قال: فقلت لها: هل لك منه خَلَف؟ (وأنا أعني الولد)، قالت: نعم، بحمد الله كثير، طيبُ ثواب الله عليه، ونعم العوض من الدنيا والآخرة"[1]. وثناء المرأة على ولدها في حالة الفقد ملمحٌ يتكرّر، لكنّ طبيعة الثناء هنا لافتة؛ فهي قد وصفته بالكرم، وأنّ زوجته لا تسيطر عليه. والثانية لا تتفطّن لها إلاّ المرأة، وهذا ملمح اجتماعي مهم. ثمّ وصفته بالبعد عن الفحشاء، وهو وصف عام يمكن أن يطلقه الرجل والمرأة، أمّا أنّه "أمره لغير عرسه" فلا تصدر إلاّ عن المرأة. وقولها: "نعم العوض" خاص بفقد الابن؛ فالأبناء يعوّضون آباءهم عن صبرهم بالجنّة يوم القيامة، وهو كلام متوقّع من الفاقد الصابر المؤمن رجلاً أو امرأة. ويبدو حمد الله سمة لغويّة متكرّرة في خطاب المرأة الفاقدة الصابرة كذلك.

ومن الفاقدات الصابرات اللواتي يتكرّر الحديث عنهن في كتب التعازي أسماء بنت أبي بكر الصدّيق (رضي الله عنها) في موقفها من استشهاد ابنها عبد الله بن

(1) المبرّد، التعازي والمراثي، ص139.

الزبير (t) وما سبقه وما تلاه. ويضربون ما فعلت نموذجاً متقدّما للتأسّي والاحتساب، يصفه ابن حمدون بقوله: "ومن التأسّي العجيب، والاحتساب الجميل ما فعلته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في حرب ابنها عبد الله بن الزبير (t)"[1].

وليس من موضوع بحثنا عرض القصّة، وسنجتزىء منها ما يخدم موضوعنا، وهو رصد سمات الخطاب عند المرأة الفاقدة الصابرة. ويلفتنا قول عبد الله بن الزبير(t) لها عندما استشارها في المتابعة والمضيّ في سبيله، فأشارت عليه أن يمضي على حقّه وألاّ يمكّن غلمان بني أميّة من نفسه قال: "...فإن هلكت، فلا يشتدّ جزعك عليّ، فإنّ ابنك لم يتعمّد ببغي على إيثار دينه عملا بفاحشة، ولم يسع بغدر.. اللهمّ إنّي لا أقول هذا تزكية لنفسي، أنت أعلم بي، ولكنّي أقولها تعزية ليسلّى عني"[2]. فهو مهمومٌ يفكّر في جزعها عليه بعد موته، وعبّر عنه بالنهي الذي يقترب في غرضه من الرجاء، وهو يحاول تعزيتها بطمأنتها إلى أنه لا يريد من هذا كلّه البغي، وإنّما يريد الله. وموقف صبرها واحتسابها بعد موته معروف.

وينقل المدائني أنّ عبد الله بن عمر(رضي الله عنهما) جاءها معزّيا، فأتاها فجلسَ إليها فقال لها: "إنَّ هذه الجثثَ ليست بشيءٍ، وإنّما الأمرُ بالروحِ، وإني لأرجو أن تكونَ روحُ عبدِ اللهِ قد أفاضت إلى خيرٍ، فاصبري. قالت: وكيفَ يَمْنَعُني أنْ أصبرَ وقد حُمِلَ رأسُ يحيى بن زكريّا النبي (r)"[3]. وتعزيته مختلفة نوعاً ما؛ فاستحضار الجسد والروح ليس معتاداً في خطاب التعزية. وإنّما حمله على ذكر الجسد والروح أنّهم مثّلوا بجسد عبدالله بن الزبير عندما قتلوه وصلبوه، ولم ينزلوا جسده إلاّ حين قالت أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) بعد ثلاثة أيام من مقتله: "أما آنَ لهذا

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونيّة، ج4/ ص311.
(2) المدائني، كتاب التعازي، ص (47- 48).
(3) المدائني، كتاب التعازي، ص84.

الفارسِ أنْ يَتَرجَّلَ"[1]. فهو يريد أن يواسيها ويهوّن مصابها بسبب ما أصاب الجسد من أذى وضرر، فقال بجملة مؤكَّدة "إنّ هذه الجثث ليست بشيء"، ولا ريب أنّه انتبه إلى أنّ مشهد الجثّة المصلوب، وما اعتراه من أثر الصلب، يؤثّر كثيراً في الأم الفاقدة الملتاعة؛ فخصّ هذه المسألة بالحديث مستعملاً النفي، ومؤكّداً هذا النفي بمؤكّدين: (إنّ) و (الباء الزائدة) في خبر ليس: "ليس بشيء". وقد قدّم بين يدي الطلب إليها بالصبر رجاء حارّاً من الله أن تكون روح عبد الله قد أفاضت إلى خير، وهو نوع من التسلية. وبعدها جاء الطلب "فاصبري". أمّا جوابها فيكشف عن إيمان عميق وحسن تأس، دلّ عليه الاستفهام الذي خرج إلى غرض النفي "وكيف يمنعني أن أصبر" بمعنى "ولن يمنعني شيء أن أصبر" ودلّ عليه تمثّلها بمقتل يحيى بن زكريا (u) وحمل رأسه. وسرّ اختيار يحيى (u) مضربا للتأسّي هو التمثيل به بقطع رأسه، وأنّ مقتله وقطع رأسه كان أكثر إيلاماً وهو نبي. وكلّ ذلك من أجل الدين ورضى الله. ويمكن أن يستشفّ من هذا الخبر إحدى استراتيجيّات تهوين المصيبة؛ وهي اختيار قصص للتأسّي مشابهة لحالة الفقد المعزّى بها. وأن يختار المعزّي كلمات توافق هذه الحالة، مثل الحديث عن الجسد والروح في حالتنا، وهو مناسب جدّاً لها، وقد لا يكون مناسباً لسواها من الحالات.

أمّا الحالة الثانية التي ندرسها، وهي أن تكون المرأة فقيدة معزّى بها، فأمثلتها محدودة جدّاً؛ فمعظم رسائل التعزية في التراث العربي هي للذكور أبناء وأزواجا وآباء وإخوة وأقارب وأحبّاء. ويمكن أن نستشفّ تمييزاً متّصلاً بالجنس في هذه المسألة، يعبّر عنه الشاعر العتبي بقوله[2]:

ألا يَزْجُــرُ الــدهرُ عنّــا المنونَــا ... يُبَقِّــي البنــاتَ ويُفْنِــي البنينــا

(1) المدائني، كتاب التعازي، ص 48.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3/ ص65.

ويصل في تبرّمه بوفاة البنين دون البنات حدّ أنه يريد من الدهر أن يزجر المنون؛ لأنّه يتقصّد الذكور دون الإناث. وفي هذا أيضاً يذكر أنّه "نُعِيَتْ إلى ابنِ عبّاسَ بنتٌ له في طريقِ مكّةَ، فنزل عن دابَّتِه فصلّى ركعتيْنِ، ثمّ رفعَ يَدَهُ وقال: عورةٌ سَتَرها اللهُ، ومؤونةٌ كفاها اللهُ، وأجرٌ ساقهُ اللهُ، ثمَّ رَكِبَ ومَضَى"[1].

وهو بهذا يلخّص نظرة العرب القدامى –وربّما المحدثين- للمرأة: عورة سترت بالموت، ومؤونة كفيت بالموت، وأجر ساقه الله، لما يؤجر المرء على صبره على فقد أبنائه. ثمّ لا شيء بعد ذلك؛ لا حديث عن الجزع والحزن أو الفقد.

وعزّى رجل عبد الله بن طاهر عن ابنته فقال: أيّها الأمير، ممّ تجزع؟ "الموت أكرم نَزَّال على الحرم"[2]. وما قاله امتدادٌ لنظرة الجاهليّين للمرأة، الذين كانوا يرون القبر خير صهر ضامن للمرأة، وَيُلْحَظُ أنّه هنا استخدم التفضيل بـــ "أكرم"، مع المبالغة "نزّال"، وكنّى عن النساء بالحرم؛ فما عادت التعزية حديثاً عن أجر الله في الصبر على فقدها، بل الحديث عن فضل الله بأن غيّبها الموت.

وعبّر جرير عن هذا المعنى بقوله[3]:

وأهــونُ مفقــودٍ إذا المــوتُ نالَــه على المرءِ مِن أَصْــحابِهِ مَــنْ تَقَنَّعَــا

وقال آخر[4]:

ولــم أرَ نِعْمــةً شَــمِلَتْ كَرِيمَــاً كَنِعْمَــةِ عَــوْرةٍ سُــتِرَت بِقبــرِ

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونيّة، ج4/ ص284.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3/ ص58.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

وفي قول جرير تفضيل سلبي ضدّ المرأة؛ فالمرأة هي أهون مفقود من بين أصحاب المرء: "على المرء من أصحابه من تقنّعا". وتصغير هذا الفقد وتهوينه بالتفضيل هو تقنية جرير في تهوين المصيبة؛ أقصد النعمة؛ فالآخر عدّها النعمة العظمى التي تتفوّق على النعم جميعاً؛ عبّر عن ذلك بالنفي بـــ "لم" مع المضارع؛ أي لم يسبق لي أن رأيت، وعبّر عن العموم بتنكير المفعول به "نعمة"؛ أي إنّه لم ير في النعم جميعاً نعمة تعادل موت البنت؛ فهي عورة سترها القبر. وكأن حياتها مدعاةٌ للفضيحة، فيكون الموت والقبر أواني الستر.

وتمتدّ هذه المعاني في تعزية لأبي الفتح كشاجم في ابنة يقول[1]:

تَـــأسَّ يـــا أبَـــا بكـــرِ ... لِمَـــوْتِ الحُـــرَّةِ البِكْـــرِ
فَقَـــدْ زَوَّجْتَهـــا القَبْـــرا ... ومـــا كـــالقبرِ مـــن صِـــهْرِ
وَعُوِّضْـــتَ بهـــا الأَجْـــرَا ... ومـــا كـــالأجرِ مـــن مَهْـــرِ
زفـــافٌ أُهْـــدِيَتْ فيـــه ... مـــن الخِـــدْرِ إلـــى القَبْـــرِ
فتـــاةٌ أســـبغَ اللهُ ... عَلَيْهـــا أفـــضلَ الـــسِتْرِ
ورزءٌ أشـــبهَ النِعْمَـــةَ ... فـــي الموْقِـــعِ والْقَـــدْرِ
وقـــد يُخْتَـــارُ فـــي المكـــرو ... هِ للمـــرءِ ومـــا يَـــدْري
فقابِـــلْ نِعْمَـــةَ اللهِ ... ومـــا أَوْلاكَ بالـــشكرِ
وَعـــزِّ الـــنفسَ عمـــا فـــاتَ ... بالتـــسليمِ والـــصبرِ

وهو الخطاب المكرور في العزاء بالمرأة، والأمر يطالعك في مطلع الرسالة "تأسّ"؛ لكنّ تعليل هذا الأمر بالتأسيّ ليس ما هو معتاد في عزاء الرجال؛ بل إنّ التعليل هو زواجها بالقبر "فقد زوّجتها القبرا". والإشادة بالقبر في سياق تعزية المرأة متكرّر، وهو عجيب، فيبدو القبر صهراً رائعاً "وما كالقبر من صهر"، والأجر فيها هو

(1) النويري، نهاية الأرب، ج5/ ص220.

خير مهر يقبضه الأب بسبب وفاتها. ويشير النّص إلى أنّ المرأة البكر (ولعلّ الإشارة هنا خاصّة بها دون غيرها من النساء) إنّما تنتقل من الخدر إلى القبر بمعنى أنّها لا تخرج من بيتها إلاّ إلى القبر، وأنّ الموت خير ستر يسبغ عليها؛ فالتفضيل في القصيدة سلبيّ في حق المرأة، والمصيبة حين تكون الفقيدة امرأة تغدو نعمة تستحق الشكر. وهي رسالة تُشعر المرء بالأسى بسبب هذه اللّغة السلبيّة تجاه المرأة، وفيها تمييز واضح متصل بالجنس. وفي الوقت الذي تهوّن فيه مصيبة الرجل بفقد الذكور عن طريق استحضار معاني الصبر وأجر الله على الصبر، وأنّ الجزع لا يردّ فقيداً، نراهم يعدّون المصاب بالمرأة نعمة كبيرة، وأنّ القبر خير زوج لها. وفي هذا تباين كبير بين الخطابين، ولا يبتعد ما قاله أبو مروان بن أبي الخصال الأندلسي عن ذلك[1]:

ألا يا مَوْتُ كنتَ بِنا رؤوفا فَجَدَّدْتَ الحياةَ لَنا بِزَوْرَة
حَمَدْتُ لِفعلكَ المأثورِ لَمّا كفيْتَ مؤونةً وَسَتَرْتَ عَوْرَة
فأنكحنا الضريحَ بقبرِ مهرٍ وَجَهّزْنا الفتاةَ بغيرِ شَوْرَة

وهو خطاب مستهجن من أندلسي عاش الحياة الأندلسية، وفي عصر متأخّر منها، أن يكرّر ما يقوله المشارقة حذو البيت بالبيت؛ فالموت فيه كفاية لمؤونة المرأة، وفيه ستر للعورة، وأنّ القبر خير صهر تزوّجه الفتاة، بل ويشير إلى تزويج المرأة وتجهيزها من غير استشارتها. ولكن يبدو أنّ الموروث الثقافي ممتدّ في هذا النص على الرغم من تغيّر البيئات والأمصار.

وتطالعك "ألا" وهي أداة تحضيض في هذا السياق في فاتحة البيت الأوّل، واقترانها بنداء الموت "يا موت"، وَوَصْفُه بأنه كان رؤوفاً ومتفضّلاً، بأن اصطفى البنت وليس الولد؛ فكفى المؤونة وستر العورة، أمرٌ مفزع.

(1) نفسه.

وينقل المبرّد عن الأصمعي قال: "ماتت امرأة عبدالله بن مطرّف بن عبدالله بن الشخّير فتبخّرَ ولبسَ حُلَّةً، فقالوا له في ذلك: فقال: أكرهُ أن أستكينَ للمصيبةِ"[1]. ويمكن أن نقرأ هذا النص في ضوء علم اللغة الاجتماعي على النحو التالي: إنّ الفقيد هو الزوجة، وليس الابن؛ فالمصاب مختلف عن حالات الفقد التي ألفنا الحديث عنها، ولا ريب أنّ لفقد الأبناء الذكور عند العرب محلاً بالغاً. فيما هم يستحون من التعبير عن أيّ حزن تجاه فقد زوجاتهم؛ فهذا جرير يقول[2]:

لولا الحياءُ لَهاجَني استعبارُ ولَزُرْتُ قَبْرَكِ والحبيبُ يُزَارُ

ولا نقول إنّهم لا يحزنون لفقد زوجاتهم، بل إنّهم يستحون من التعبير عنه. بل يبدو أنّ العرف يقتضي أن لا تذكر المرأة ما استطيع إلى ذلك سبيلاً، حيّة أو ميّتة فهي عورة ينبغي سترها.

وفي نصوص أخرى تجلّد الفاقدون أمام مصائبهم، لكنّهم لم يتبخّروا ولم يلبسوا الحلل، ولذلك كانت صنيعة هذا الرجل محلّ استغراب من المجتمع "فقالوا له في ذلك"؛ فهو يعدّ الجزع على زوجته، أو إظهار ألمه لفقدها استكانة. وهو قد استخدم المصدر المؤول مفعولاً به للفعل "أكره" وهو أبلغ في التعبير عن هذه الكراهية؛ فكأنّه دخل في تحدٍّ مع هذه المصيبة، ولا يريد لها الانتصار عليه؛ فهي تهدف إلى النيل منه بجعله يستكين أمامها وهو كاره لهذه الاستكانة.

وتندر تعازي الناس للرجل بفقد النساء من قريباته: الأم، أو الأخت، أو الابنة، أو الزوجة، وما عثرنا عليه من ذلك هو، غالباً، متّصل بالخلفاء والأمراء وأكابر الناس. فيبدو أنّ الوضع الاجتماعي أو المنصب له دور مهم في وجود هذا النوع من رسائل

(1) المبرّد، التعازي والمراثي، ص118.

(2) محمد إسماعيل عبدالله الصاوي، شرح ديوان جرير، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1982، ج1/ص199.

التعازي في الجاهليّة والإسلام؛ وهذا ملمح مهم في اللّسانيات الاجتماعيّة، وهو وجود ارتباط بين الطبقة الاجتماعيّة والسمات اللّغويّة؛ فمن العصر الجاهلي ما روي أنّه "ماتتْ لبعضِ ملوكِ كندةَ بنتٌ فوضَعَ بدرةً بين يديه. وقال: من أَبلغَ في التعزيةِ فهي له. فدخل أعرابيٌّ فقال: عَظَّم اللهُ أجرَ الملكِ. كُفِيتْ المؤونةُ وَسُتِرَتْ العورةُ، ونِعمَ الْخَتَنُ القبرُ. فقالَ: أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ. وأعطاهُ البدرةَ"[1]. وهي في مضمونها لا تختلف عما ذكرناه من عدّ المرأة عورة وأنّ الموت يكفيهم مؤونتها. واعتبار القبر خير صهر، ولكنّ الغريب هو سرور الملك بهذه الرسالة، بدليل البدرة التي حصل عليها هذا الأعرابي؛ فهو نسقٌ اجتماعي متغلغل، يندر أن يندّ عنه أحد حتّى الملوك.

ولكنّنا نجد اختلافاً في "بعض" الرسائل بعد الإسلام في تعازي قريبات الخلفاء أو أكابر الناس. ومنه ما نقله المدائني أنّ "شبيبَ بن شيبةَ عزّى المهديَّ على "بانوقةَ" ابنتَهُ، وكان يحبُّها كثيراً، فلمّا ماتت أظهرَ عليها جزعاً شديداً. فجلسَ الناسُ يُعزّونَهُ، وأمرَ أنْ لا يُحْجَبَ عنهُ أحدٌ؛ فأكثرَ الناسُ في التعازي، واجتهدوا في البلاغة، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ، ما عندَ اللهِ خيرٌ لها منك، وثوابُ اللهِ عزَّ وجلَّ خيرٌ لكَ مِنْها"[2].

وهي رسالة تعزية عاديّة من جهة مضمونها؛ فهي تهوّن من المصاب باستخدام اسم التفضيل "خير"، وهو يوازن بين ذكر المعزّى بها والمعزّى؛ فيذكر أنّ ما عند الله خير للفقيدة، وأنّ ثواب الله على صبره عليها هو خير للمعزّى منها. ومن يقرأ الرسالة بمعزل عن ضمير التأنيث في: "لها، ومنها" يظن أنّها رسالة عزاء في ابن وليس في ابنة؛ فهذه الرسالة لا تختلف عن التعزية بالأبناء. ويُلْحظ في هذا النّص القصير التركيز على المتلقّي بوصفه مركز رسالة التعازي؛ فهو المعنيّ مباشرة بغرض الرسالة في التعازي. ظهر ذلك في ضمائر الخطاب الماثلة فيه وهي ملحوظة مطّردة في رسائل التعازي كلّها.

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج4/ ص284.

(2) المدائنيّ ، كتاب التّعازي ، ص 48 .

ومنه أيضاً ما أورده ابن قتيبة أنّ إبراهيم بن يحيى الأسلمي كتب إلى المهدي يعزّيه عن ابنته: "أمّا بعدُ، فإنَّ أحقَّ مَنْ عَرَفَ حقَّ اللهِ فيما أُخِذَ منهُ مَنْ عَظَّم حَقَّ اللهِ فيما أَبْقى له. واعلمْ أنَّ الماضيَ قبلكَ هو الباقي بَعْدَكَ، وأنَّ أجرَ الصابرينَ فيما يصابون بهِ، أعظمُ عليهم من النعمةِ فيما يُعانون منْهُ"[1]. وهي أيضاً لا تختلف عن رسائل العزاء في الذكور ممّن يُفْقَدُون، ويُلْحظ أنّ المعزّى بها "الفقيدة" لا تظهر ولو بضمير واحد؛ فالخطاب عام ولا يظهر جنس الفقيدة، وربما كان لهذا دلالته من استحيائهم الإشارة إلى النساء.ويظهر المتلقّي ظهوراً بيّناً في ضمائر الخطاب في "اعلم"، و "قبلك" و "بعدك" ويُلْحَظُ في النص توظيف الطباق والمقابلة. وذلك للتمييز بين خيارين: الصبر وأجره، والجزع ومغبّته. نجد ذلك في "أخذ منه" و "أبقى له". و "قبلك" و "بعدك". و "به" و "عنه". وهو توظيف يؤدّي وظائف متنوّعة في إحداث التوازن النفسي والوجداني لدى المتلقّي. ويلفتك كثرة المؤكّدات وهي تصبّ في الغرض نفسه.

ومنه ما كتب به سعيد بن حميد إلى محمد بن عبدالله يعزّيه عن أمه: "ليسَ المُعزِّي على سلوكِ السبيلِ التي سَلَكها الناسُ قَبْله، والمضيّ على السّنةِ التي سَنَّها صالحو السلفِ لَهُ. وقد بلغني ما حدثَ من قضاءِ اللهِ في أمِّ الأميرِ، فنالَني من ألمِ الرزيَّةِ وفاجعِ المصيبةِ ما ينالُ خَدَمَه الذينَ يَخُصُّهم ما خَصَّه من النعمِ، ويتصرَّفون معهُ فيما تناولَهُ اللهُ بهِ من المحنِ. فأَعْظَمَ اللهُ للأميرِ الأجرَ، وأجزلَ لهُ المثوبةَ والذخرَ، ولا أراهُ في نعمةٍ عندهُ نَقْصاً، ووفَّقَهُ عند النعمِ للشكرِ الموجبِ للمزيدِ، وعند المحنِ للصبرِ المُحْرِزِ للثوابِ، إنَّه هو الكريمُ الوهّابُ، ورَحِمَ اللهُ الماضيةَ رحمةً مِنْ رَضِيٍّ سَعْيِه، وجازاهُ بأحسنِ عملِه، ولو كانت السبيلُ إلى الشخوصِ إلى بابِ الأميرِ سهلةً لكانَ اللهُ قد أَجَلَّ الأميرَ عن أن يُعَزِّيَهُ مِثْلي بالرسولِ دونَ اللقاءِ، وبالكتابِ دونَ الشفاهِ، ولكنَّ الكتابَ لقاءُ مَنْ لا سبيلَ لهُ إلى الحركةِ، وقبولِ العذرِ عَمَّن حِيلَ

(1)ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3/ ص(57- 58).

بَيْنَه وبَيْنَ الواجبِ"[1]. وهو خطاب رسمي، وفيه ضربٌ من التزلّف للأمير غلب على كونه رغبة بالعزاء، بدليل الجزء الأخير من الخطاب. وفيما عدا ذلك فإنّ مضمون الرسالة لا يختلف عن التعازي بالذكور، وتظهر بعض الألفاظ الدالّة على التأنيث في بعض ثنايا الرسالة، في قوله مثلاً: "ورحم الله الماضية"، وقوله: "أمّ الأمير".

ويجتمع في النّص أسلوب الإخبار مثل: "ليس المعزّي على سلوك السبيل التي سلكها الناس قبله". وأسلوب الدعاء مثل: "أعظم الله للأمير الأجر، وأجزل المثوبة والذخر". وأمّا مضمون الدعاء فمتّصل بالموضوع، ويتحدّث عن الأجر والمثوبة والرحمة والجزاء.

والتركيز على المتلقّي هو الغالب على هذا الخطاب، مع ظهور المرسل ظهوراً محدوداً، نجده في: "بلغني" و "نالني" و "مثلي". وظهور المرسل غرضه إظهار مشاركته الوجدانيّة للفاقد المعزّى. ويُلْحَظُ تقولب الخطاب بحسب مقام المتلقّي، فهو الأمير. وتبدّت لهجة التأدّب الخاصّة في تقديم التعليق "للأمير" على المفعول به "الأجر" في قوله: "أعظم الله للأمير الأجر" ولكن لا خصوصيّة ظاهرة للمعزّى بها.

ويشبهها رسالة أخرى كتبها عبد الحميد بن مروان بن محمّد إلى هشام بن عبد الملك يعزّيه بامرأة من نسائه رسالة من جملتها: "إنَّ خَيْرَ نِعَمِ اللهِ على خلفائِه ما رَزَقَهم الشكرَ عليه. وكلُّ ما اختارَ اللهُ لخليفتِه من أمرٍ وَهَبَهُ لَهُ أو قَبَضَهُ منه خيرٌ له. والدنيا دارُ متاعٍ وبُلْغَة، وما فيها عواري بين أهلها ثمّ منقولٌ عنهم سرورُهُ إن كان سارّاً أو مكروهُهُ إن كان لهم ضارًّا. إنَّ اللهَ أمتعَ أميرَ المؤمنينَ من مُؤْنِسَتِه وقرينتِه مَتَاعاً بِمَدِّه إلى أجلٍ مسمًّى. فلمّا تمَّتْ مواهبُ اللهِ وعاريتُه قبضَ اللهُ العاريةَ وليُّها، وكان أحقَّ بها... احْتَسِبْ مصيبَتَكَ يا أميرَ المؤمنينَ على اللهِ، فإنَّه وليُّك فيها ... إنْ تكنْ يا أميرَ المؤمنينَ أَرضيْتَ اللهَ في شكرِكَ إيّاهُ على الهديّةِ، وصَبْرِكَ على الرزيّةِ؛

(1) نفسه، ج3/ ص(67- 68).

فإنَّ مواهبَ اللهِ لكَ أجزلُ، وثوابُ اللهِ لكَ أفضلُ؛ فامضِ على رُؤْيَتِكَ في الخيرِ، فإنَّ ما عندَ اللهِ لا يَبْلُغُهُ كتابٌ ولا يُحْصيهِ حسابٌ..." [1].

وهو خطاب رسمي أيضاً. ويرد فيه ذكر المرأة بألفاظ دالّة عليها، فقد سمّاها: مؤنسة وقرينة ومتاعاً، وأطلق على وفاتها اسم "مصيبة" ولم يسمّها "نعمة" كما فعل السابقون. وهذا تطوّر نوعي في خطاب العزاء بالمرأة. ولكنّه متصل بطبقة اجتماعيّة معيّنة. وفيما يتعلّق بفكرة الموت واللّغة المعبرّة عنها، فلا اختلافات تذكر عن رسائل التعازي في الذكور التي مرّت بنا قبلاً.

ونشير أيضاً إلى انعكاس مقام المتلقّي الخليفة على بنية النص؛ نجده في هذه الجملة التي تأخذ شكل القاعدة: "إنّ خير الله على خلفائه ما رزقهم الشكر عليه"؛ فهو خطاب خاص، ونجده في مراعاة الألقاب وأصول التخاطب: "احتسب مصيبتك يا أمير المؤمنين".

وما عدا هذه الملحوظات التي نجد فيها خصوصيّة للمتلقّي الخليفة، نجد أنّ موضوع التعازي يفرض نفسه في طبيعة الأفكار التي ترد في النص وهي: ألم الفقد، وأجر احتساب المصيبة، وضرورة الصبر، وانتظار ما عند الله من ثواب. وأنّ هذه طبيعة الحياة المبنيّة على اللّقاء والفراق. ونجد الموضوع يتحكّم كذلك في الأساليب مثل: أسلوب الطباق والمقابلة، كما في: "عليه و له"، و " وهبه له" و " قبضه منه"، و "سروره" و "مكروهه". وكذلك أسلوب الدعاء، وكذلك أسلوب التوكيد. ونجد الموضوع كذلك لا يتحكّم في الألفاظ والمعجم، فيكثر لفظ الجلالة كثرة واضحة، وألفاظ مثل :أجر، ثواب، مصيبة، رزيّة، سرور، مكروه، أجل مسمّى، صبر، رضى، شكر...".

أمّا عند غير الخلفاء فتكاد تختفي أخبار التعازي في النساء؛ ومن النادر منها ما نقله المدائني قال: "كان محمّد بن سيرينَ يكونُ عندَ المصيبةِ كما يكونُ قبلَ ذلكَ، إلاّ

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونيّة، ج4/ ص284.

يومَ ماتتْ حفصةُ بنتُ سيرينَ؛ فإنَّهُ جعلَ يُكشِّرُ والناسُ تُعزّيه"[1]. ومعنى الخبر أنّه في مصائبه الأخرى تجلّد ولم يبدُ عليه تغيّرٌ أبداً، وكانت علامة الجَلَد والصبر عندهم أن لا يغيّر المرء شيئاً من عاداته[2]. أمّا في هذا الخبر فالرجل قد تغيّر وأخذ يكشّر، وتقبّل التعازي في ابنته، ممّا يدلّ على أنّ مكانة البنت في نفسه أكبر وأعظم.

ومنها أيضاً ما نقله المدائني قال: "ماتت امرأة بكرِ بن عبد اللهِ المُزْني فاشتدَّ جَزَعُهُ، فنهاه الحسنُ. فقال: يا أبا سعيد إنّها كانت مُواتِية، وكانت.... فقالَ الحسنُ: فلا تيأسنّ؛ فعندَ الله خيرٌ منها. فَتَزَوَّجَ أُخْتَها؛ فمرّ به الحسن، فقال: يا أبا سعيد هذه خيرٌ من أختِها"[3].

ونهي الحسن للرجل عن الجزع يتّفق مع مجمل صورة التعازي عند العرب. ولّما بدأ الرجل يبّرر جزعه بحسن خصال هذه المرأة؛ أي إنّها تستحقّ الجزع، نهاه عن اليأس معزّياً إياه بأنّ الله عنده خيرٌ منها، ولعلّ هذا أيضاً يبدو عاديّاً، وهو نوع من تهوين المصيبة، أمّا خروج الرجل من حالة الجزع إلى حالة السرور عند زواجه من أختها، وتبخّر الجزع والحزن ربّما هو المختلف؛ فيظهر في رسالته القصيرة، وما اشتملت عليه من تفضيل بـ "خير": "فهذه خيرٌ من أختها" نوعٌ من انعدام الوفاء، وهو جازع الأمس الذي كان يذكر لها من السجايا كيت وكيت. ولكنّه يتّفق مع مجمل الموروث الذي نجده حول زواج الرجل بعد وفاة زوجته.

وبالانتقال إلى النسق الثقافي /الاجتماعي الذي أفرز هذا الواقع اللّغوي فإنّنا سنجد - في المجمل – موروثاً يجعل للمرأة مكاناً متدنيّاً في السلّم الاجتماعي، ينظر إلى المرأة على أنّها عورة كلّها، وأنّها مجلبة للعار، وأنّها عالة تحتاج المؤونة ولا تقتدر على جلبها، وأنّ القبر خير ضامن زمِّيت لها. ولا ريب أنّ الإسلام في منظومته

(1) المدائني، كتاب التعازي، ص85.
(2) انظر : المدائنيّ ، كتاب التّعازي ، ص86.
(3) نفسه، ص33.

العقديّة والاجتماعيّة لا يتّفق وهذا، وأنّه قد تميّز عن هذا الموروث في الفكر والواقع، لكنّ التغيّر في فكر المجتمعات وثقافتها وبنيتها الاجتماعيّة يأخذ وقتاً طويلاً.

ويصوّر النويري في باب التعازي طرفاً من هذا بقوله: "ومن أشدّ الرثاء صعوبة على الشاعر وأضيقه مجالاً أن يرثي امرأة، أو طفلاً"[1].ولعلّ ما أورده صاحب العقد يتّفق وهذا، فقد روى أنّ أختاً لعمر بن عبد العزيز توفّيت، فلمّا فَرَغَ من دفنها دنا إليه رجلٌ فعزّاه فلمِ يردُّ عليهِ شيئاً، ثمَّ دنا إليه آخر فعزّاه فلم يردّ عليه شيئاً، فلمّا رأى الناس ذلك أمسكوا عنه ومشوا معه، فلمّا بلغَ البابَ أقبلَ على الناسِ بِوَجْهِه وقال: أدركت الناس وهم لا يعزّون بامرأة إلاّ أن تكون أمّاً، انقلبوا رحمكم الله"[2].

والباحثة تضعّف هذه الرواية؛ فالمدائني، وهو سابق زمنيّاً لكل من كتب في التعازي، لم ينقلها مع أنّه أورد مجموعة كبيرة من أخبار التعازي المتعلّقة بعمر بن عبدالعزيز، وكذلك لم ينقلها المبردّ في كتابه. وإن كنّا نجد صدى مضمونها صحيحاً، في شبه غياب رسائل التعازي في المرأة بكلّ أنواعها بما فيها الأم. وما وجدناه يتّصل أكثره ببنات الخلفاء والأمراء، ومردّه الرغبة في إرضاء هؤلاء، وليس التعاطف مع موت المرأة.

أمّا الحالة الثالثة للمرأة في رسالة التعازي فهي كونها مُعَزِّية، وهو غائب تماماً. ولم أجد له إلاّ مثالاً واحداً هو:

"عزّت أعرابيّة قوماً فقالت: جافى الله عن ميّتكم الثرى، وأعانه على طول البلى، وآجركم ورحمه"[3].

(1) النويري، نهاية الأرب، ج5/ ص218.

(2) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج3/ ص263.

(3) ابن حمدون، التذكرة الحمدونيّة، ج4/ ص259.

وهي تعزية تقوم على الدعاء. ويلمح فيه حنان المرأة وتعاطفها من خلال دعائها بأن يتجافى الثرى عن الميّت، وإعانته على طول البلى. أمّا الجزء الأخير من الدعاء فهو مأثور. وما عدا هذا فلا نجد اختلافاً في اللّغة أو التراكيب أو الأسلوب يعزى لاختلاف جنس المرسل.

وغيابها مُعزّية – في كتب التعازي - قد يكون مرتبطاً بكونها لا يعزّى بها، فإذا كان العزاء بها محلّ حرج فقد يكون نقل تعزيتها، أو توثيقها، فيه حرجٌ كذلك. وقد يعزى إلى قلّة ما أثر عن النساء في هذا الجانب وضعف توثيقه عند العرب. وإلاّ فالعزاء واجبٌ على الجميع رجالاً ونساءً، خاصّة في مرحلة ما بعد الإسلام، الذي حثّ على مشاركة المسلم (رجلاً أو امرأة) لأخيه المسلم في مصائبه.

الخاتمة:

وقف هذا البحث على عدد من الأنساق الثقافيّة والاجتماعيّة التي تعكسها الأنساق اللّغويّة في رسالة التعازي. وحاول أن يجلّي جدليّة اللّغوي والاجتماعي في خطاب التعازي. وقد كشف عن بعض السمات الاجتماعيّة والثقافيّة في المجتمع العربي المسلم في تعامله مع قضيّة الموت وتفاعل الناس معها. ولا ريب أنّ هذا الضرب من الدراسات اللّغوية يتّصل بالوظيفة التفاعليّة للغّة؛ التي تقوم على دراسة العبارات والنصوص كمنجزٍ بالفعل. وهي دراسة تلامس العلوم الاجتماعية والإنسانيّة عموماً. عبر تناولها عمليّة الإيصال التي تربط بين اللّغة نظاماً والإيصال هدفاً للمتكلّمين. ويتمّ ذلك عبر الوقوف على أركان الخطاب الثلاثة: المرسل والرسالة والمرسل إليه، وفي ضوء سياق الحال.

ويمكن أن نلخّص النتائج التي خلُصت إليها الدراسة بالنقاط الآتية:

1. من أبرز الأنساق الثقافيّة/ الاجتماعيّة إصرار المرسِلين في رسالة التعازي على خيار "الصبر". وعبّروا عن هذا الإصرار بأساليب لغويّة حازمة في الجاهلية

والإسلام، ويقف خلف هذا النسق تفسيران: أوّلهما، تداولي يتّصل باستراتيجيّة خطابيّة يتّبعها المرسِل في ردّ المتلقّي المفجوع إلى جادّة الوعي واليقين بعد أن عصفت به المصيبة. وثانيهما، اجتماعي مردّه منظومة العرف والاعتقاد عند العرب، الذين يعدّون الجزع مثلمة للمكارم التي لا تليق بالرجال. ويعدّون الصبر من مكارم الأخلاق. ويُرَدُّ كذلك إلى منظومة الدين واليقين والإيمان والاستجابة لأمر الله ورسوله (r) بالصبر.

2. تشكّل "الشهادة" قيمة عليا في المجتمع المسلم، وقد انعكس ذلك واضحاً على الأبنية اللّغويّة المشكِّلة لرسالة التعازي في حدث الشهادة. وتمثّل ذلك في جانب الألفاظ والأساليب التي يستعملها المرسِلون، فيما يمكن أن ينقل رسالة التعازي إلى ضرب من التبريك والتهنئة التي تعكس الفخر والاستبشار بما أعدّه الله من أجر للشهداء.
3. تعكس رسالة التعازي جانباً من أعراف المجتمع العربي والمسلم ومعتقداته في وقت المصيبة وعند الموت وفقد الأحبّة. وما يقال لأهل الميت، وعاداتهم في الصلاة على الميت ودفنه وتقبّل العزاء فيه، وحرص المسلمين على تبادل التعازي لِما أعدّه الله من أجر لِمن يقوم بهذا الفعل. كما تكشف هذه الرسالة عن بعض السمات الجغرافيّة لرسالة التعازي، حيث إنك تستطيع تمييز البيئة الجغرافيّة من خلال صيغة التعزية التي يستعملها أهل هذه البيئة؛ وهذا من أهمّ الموضوعات التي تُعنى بها اللّسانيّات الاجتماعيّة. وكذلك اختلاف صيغة التعزية بحسب دين المصاب أو دين المعزِّي، حيث يتبدّى أثر العقائد الدينية في الأبنية اللّغويّة. كما أظهرت الدراسة الألم الخاص لفقد الأبناء الذكور في المجتمع العربي في الجاهلية والإسلام.

4. إن قراءة رسالة التعازي في ضوء مفاهيم عملية الاتّصال أظهرت اختلاف رسالة التعزية بحسب اختلاف قناة الاتّصال؛ فالمنطوق غير المكتوب. ومن الملحوظ أن رسائل التعازي المكتوبة قد كثرت بصورة لافتة فيما بعد القرن الرابع الهجـــري. ولعلّ صنعة الكتابة أثّرت في تحويل رسالة التعزية في عصر متأخّر من كونهـــا مظهراً اجتماعياً / لغوياً دالاً على التعاطف الإنساني وتبادل المشاعر إلى فن قائم بذاته، يحفل بالصنعة والبديع، نجد ذلك ماثلاً بوضوح في نصوص التعازي فـــي المصادر المتأخرة مثل: "غرر البلاغة" للصابي، و"نهاية الأرب" للنويري.

كما أظهرت الدراسة اختلاف رسالة التعزية بحسب اختلاف أطراف الاتـــصال، من جهة: الجنس، والمكانة الاجتماعية، والعصر. وكذلك اختلافها بحسب ســـياق الحال. وقد عُنيت الدراسة بإبراز دور المرسِل والمتلقي والـــسياق فـــي تقولـــب رسالة التعازي. وقد كشفت رسالة التعازي عن بعض الظـــواهر اللهجيـــة عنـــد العرب وهو مما تُعنى به اللّسانيّات الاجتماعيّة، ويوفّر مادّة للدارسين فـــي هـــذا الجانب.

5. كشفت الدراسة عن ظهور محدود للمرأة في خطاب التعازي من خلال حالاتهـــا الثلاث: حين تكون المرأة فاقدة / معزّاة، وحين تكون فقيدة / معزّىً بها، وحـــين تكون معزِّية. وقد أظهرت الدراسة وجود فروق لغويّـــة واضـــحة فـــي رســـالة التعازي متّصلة بالجنس، وقد تمثّل هذا في شبه غياب رسائل التعزية بالأنثى، إلاّ ما وجدناه عند بنات الخلفاء والسادة، واختلاف عبارات التعزية باختلاف جـــنس المفقود، وشبه غياب رسائل التعزية الصادرة عن النساء.

وبالانتقال إلى النسق الثقافي/ الاجتماعي الذي أفرز هذا الواقع، نجـــد موروثـــاً يجعل للمرأة مكاناً متدنّياً في السلّم الاجتماعي، ينظر إلى المرأة على أنّها عـــورة

كلّها، وأنّها مجلبة للعار، وأنّ الموت كفيل بكفاية مؤونتها وسترها. وترى الباحثة أنّ هذا لا يتفق مع الإسلام في منظومته الفكريّة الواضحة التي لم تجد لها ترجمةً واضحة على أرض الواقع. كما وقف البحث عند التشكّلات اللّغويّة لرسالة التعازي عند المرأة الصابرة والجازعة.

6. يوصي البحث بإجراء مزيدٍ من الدراسات التي تعيد قراءة المادّة اللّسانيّة العربيّة في الموضوعات المختلفة؛ ممّا يمكّن من الوقوف على الأنساق الثقافيّة والاجتماعيّة التي صدرت عنها، كما أنّه كفيل بأن يعيد للدرس اللّساني بعض رَوائه وحيويّته.

المصادر والمراجع

المصادر (مرتبة ألفبائياً بحسب المؤلّف):

1- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، (ت 279 هـ)، سنن الترمذي، دار إحياء التراث، ط1، بيروت، 1980.

2- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت608هـ)، التذكرة الحمدونيّة، تحقيق إحسان عبّاس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1996.

3- الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت 448هـ)، غرر البلاغة، حقّقه وقدّم له محمد الديباجي، دار صادر، بيروت، ط2، 2002.

4- الصاحب بن عبّاد (ت385هـ)، رسائل الصاحب بن عبّاد، صحّحها وقدّم لها عبد الوهاب عزّام وشوقي ضيف، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت. الباب العاشر، ص(136- 151).

5- ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد (ت 328هـ)، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1987.

6- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمّد عبد الله بن مسلم(ت 276هـ)، عيون الأخبار، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994.

7- المبرّد، أبو العبّاس محمد بن يزيد (ت 286هـ)، التعازي والمراثي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996.

8- المدائني، أو الحسن علي بن محمّد (ت 228هـ)، كتاب التعازي، تحقيق ابتسام الصفّار وبدري محمّد فهد، ، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط1، 1971.

9- الإمام مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، صحيح مسلم، بترقيم وترتيب محمّد فؤاد عبدالباقي، مكتبة ألفا، القاهرة، ط1، 2008.

10- النويري، شهاب الدين أحمد عبدالوهاب (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ط2، 2007.

المراجع: أولاً: باللغة العربية:

1- إبراهيم، عبدالله، التلقّي والسياقات الثقافيّة، مؤسّسة اليمامة الصحفيّة، الرياض، ط1، 2001.

2- أشار، بيار، سوسيولوجيا اللّغة، ترجمة عبد الواحد ترّو، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1996.

3- بدوي، عبدالرحمن ، الموت والعبقريّة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ط1، 1945.

4- براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، ط1، 1997.

5- بشر، كمال، دراسات في علم اللّغة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1973.

6- بوشوك مصطفى، علم اللّغة الاجتماعي وتعليم العربيّة الفصحى، المدرسة العليا للأساتذة، الرباط، العدد (4-5)، 1978، ص42.

7- رابين، تشيم، اللهجات العربيّة القديمة في غرب الجزيرة العربيّة، ترجمة عبدالكريم مجاهد، دار الفارس، عمان، ط1، 2002.

8- ريكور، بول ، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003.

9- صبري السيّد، علم اللّغة الاجتماعي: مفهومه وقضاياه، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، ط1، 1995، ص7.

10- عبد البديع، لطفي، التركيب اللّغوي للأدب، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1997.

11- العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعي، ط1، 2005.

12- عيد، رجاء ، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1993.

13- عيّاشي، منذر، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، الدار البيضاء، ط1، 2002.

14-الغانمي، سعيد، اللغة والخطاب الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1993.
15-فاسولد، رالف، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة ابراهيم بن صالح الفلاي، جامعة الملك سعود، 2000.
16-فان دايك، النص: بنياته ووظائفه مدخل أوّلي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، الدار البيضاء، ط1، 1996.
17-فندريس، جوزيف، اللّغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصّاص، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950، ص7.
18-لويس، م. م، اللّغة في المجتمع، ترجمة تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2003، ص281.
19-محمود السعران، اللّغة والمجتمع: رأيّ ومنهج، بنغازي، ط1، 1958، ص56.
20-مصطفى لطفي، اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعي، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1976، ص47.
21-نهر، هادي، اللّسانيّات الاجتماعيّة عند العرب، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، ط1، 1998.
22-هدسون، علم اللّغة الاجتماعي، ترجمة محمود عيّاد، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1990.

ثانياً: باللّغة الإنجليزية:

23- Austin, John: How to do things with words, Oxford Uni. Press, 1962.
24- Ditmear, Norbert, Sociolinguistics: A critical Survey of theories and application, Frankfurt, 1976.
25- Holmes, Janet, An Introduction to Sociolinguistics, Longman, 2001, p.8.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2010/3/2.